وزارة الثقافة

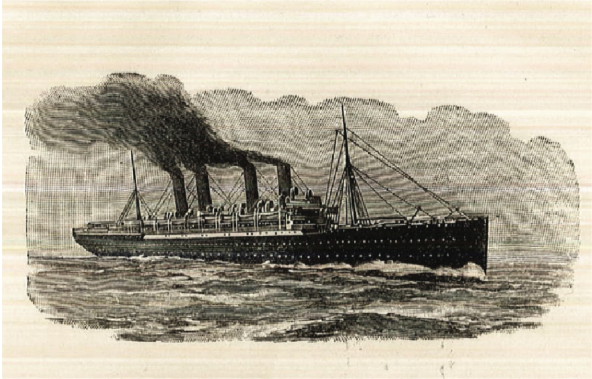

الباخرة

صلاح الدين العباسي

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

الباخرة

تأليف: صلاح الدّين العبَّاسي

صدرت الطَّبعة الأولى عام ١٩٣٢

عن مطبعة بيت المقدس في القدس

وزارة الثقافة الفلسطينية
سلسلة الموروث الثقافي
اسم المؤلف: صلاح الدّين العبَّاسي
اسم الكتاب: الباخرة
الطبعة الأولى: ١٩٣٢ عن مطبعة بيت المقدس - القدس

الإشراف العام: عبد السَّلام عطاري
مراجعة وتدقيق: رشيد عِناية
تصميم الغلاف: فاطمة حسين
صورة الغلاف: مأخوذة من النسخة الأصلية للكتاب

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين
www.moc.pna.ps

الباخرة

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

لم تكن فلسطين ارضاً قاحلة، بل كانت ارض معطاءة
وكان ابناؤها وبناتها مبدعين في الشعر والقصة والرواية
والمسرح والموسيقى والسينما والعلوم الاجتماعية والفكر
والفلسفة. ان هذه الكوكبة من الكتب التي نعيد اصدارها
تقدم باقة من هذه الابداعات التي تكشف عن عظمة هذا
الشعب ومحبته للثقافة والمعرفة.

كانت فلسطين تزخر بالمطابع والمكتبات والصحف والمجلات
والمسارح ودور السينما والمراكز الثقافية والمدارس والمعاهد
وكانت منارة يهتدي بها الكثيرون، ويفدون اليها طلباً
للعلم والمشاركة في الحياة الثقافية التي كانت تزدهر بها.
نعتز بموروثنا الثقافي الذي ابدعه اجدادنا. ونريد ان
نحافظ عليه، ونريد للاجيال القادمة ان تقرأه وتعتز
به وتبدع كما ابدع اسلافهم.

٣٠/٣/٢٠٠٤

مقدمة

•••

ألـح عـلي كثـيرون مـن ذوي العلـم والأدب لجمـع سلسـلة مقـالاتي عـن تركيـا، التـي تفضلـت بنشرهـا جريـدة «فلسـطين» الغـراء بأعـداد متتابعـة برسـالة واحـدة وطبعهـا، نـزولاً عنـد رغبتهـم عزمـت عـلى تنفيـذ ذلـك. وقـد أسـميت هـذه الرسـالة بـِ «الباخـرة» بعـد أن عدلـت بعـض مـا بهـا وأصلحـت بقـدر الامـكان أغلاطهـا وأضفـت إليهـا مـا كانـت فقدتـه الذاكـرة عنـد نشرهـا كمقـالات. كـما وقـد أرفقتهـا بقصتـين كنـت عربتهـا عـن الانجليزيـة وكانـت جريـدة «الـصراط المسـتقيم» الغـراء تفضلـت بنشرهـما.

ولمـا قـرأت مسـودة الباخـرة عـلى الشـاعر المفطـور الأسـتاذ الشـيخ محـي الديـن افنـدي المـلاح قـاضي التحقيـق بمدينـة نابلـس أمطرهـا بلؤلـؤ مـن فصيـح كلامـه وتفضـل بتحليـة جيدهـا بأبيـات مـن شـعره الرقيـق نشرهـا بالصفحـة التاليـة. كـما وان الشـاعرين الأديبـين الشـيخ أحمـد أفنـدي البسـطامي والشـيخ محمـد افنـدي البسـطامي تفضـلاً فزينـا الباخـرة بأعـلام شـعرهما ورايـات أدبهـما. واللـه أسـأل أن تجـد هـذه الباخـرة قبـولاً ورواجـاً لـدى القـراء الكـرام وأن يشـق حيزومهـا حبـاب المـاء في بحـر الأدب واللـه ولي الأمـر والتدبـير.

صـلاح الدين العباسي الصفدي

نابلس

١٠ ذو الحجة ١٣٥٠هـ / نيسـان ١٩٣٢

قصيدة الاستاذ الشيخ محي الدين أفندي الملاح

•••

أصوّر من نفسي خيالاً من الشعر أحاوره فيما اقتضى لي من أمري

وأختاره جنساً لطيفاً محبباً إلى الذوق يحلو في عيون في العصر

من الغيد هيفاء القوام تبرجت بزينتها مذ فارقت سحف الخدر

وسميتها لما بدت فتنة النهي على ما بها من فاتن نافث السحر

محيا كساه الحسن من حلل البها سنا البدر يزهو في ظلام من الشعر

وزاهي جبين أزهر اللون فاتن يضيء كنور الصبح في شفق الفجر

وعينان نجلاوان ترمي لحاظها سهاما فتفري القلب بالنظر الشذر

وأنف تناهى بالجمال تخاله حساما حمى ورد الحدود من الغدر

وثغر يحاكي الميم شهدُ رضابه وأمّا ثناياه فحدث عن الدر

وجيد كجيد الريم حسنا وإنما يرى الماء فيه لا بجيد الظبا يجري

ونهدان كالرمانتين براهما على غير مثل مبدع الصنع في الصدر

فأجمل بنوم الصب بين نهودها وأعذب برشف الشهد من ذلك الثغر

أبا الفضل كاف ما وصفت فلا تزد فما بعد هذا ليس يحمد بالذكر

فإن أخا الآداب من زان قوله ونزّه ألفاظ القوافي عن الهجر

أليس كلام المرء يؤثر بعده ويكتبه التاريخ في صفحة الدهر

وما الشـعر إلا ما يلذ سـماعه إلى الناس طراً دون نقد ولا نكر

فخـذ فتنـة الألباب من تحت ابطهـا بيمناك وأمددها لمنعطف الخصر

وسـيرا معا مشي القطاة عشـية إلى الروضة الغناء يانعة الزهر

وطوفا بمنشـور الربيع ووروده ونسرينه واستنشـقا عبق العطر

وجاذبهـا أطـراف الحديـث برقـة ومدَّ بروض الزهر مائدة الخمر

وخذ أنت صرفاً أو مزيج رضابها وناولها من أشـهى المزيج على السـكر

وبح بهواها وأشـك منها غرامها إليها وما قاسـيت من لوعة الهجر

ودع عنـك أخبـار الزمـان وأهله فإن بهـا تنغيص عيش الفتى الحر

أتسـعد أوطان تفرق أهلها كأيدي سـبا سـيان في الكفر والمصر

يراعي رويداً عد عن ذكر ما إذا شـططت به أمسـيت منه على الجمر

وعـد للهـوى واللهو والروض والمنـى وللحب والصهباء والأنس والبشر

وإن ملَّ من تهواه هذا فسر به من الروضة الغناء إلى شـاطئ البحر

هناك ترى كيف النسـيم تلاعبت أنامله في الماء والرمل في البر

وخطّت بأقلام الطبيعة أسـطراً يرتبها الاتقان سـطراً إلى سـطر

وتنظـر كيـف البـدر ألقى أشـعة عليها كلألآء اللجين أو الصفر

وخذ زورقاً وأنزل بفاتنة النهى (لباخرة) الآداب سـاحرة الفكر

هناك ترى الملاح شـيخاً مسـلماً على آيب كالبدر في شرف يسري

على خير شـاب عبقري مهذب بفضلٍ ونبلٍ سـاد والأدب الوفر

وأضحـى بباريـز لمجمـع علمهـا وتاريخه الدولي عضواً لدى الذكر

ونال وسـاماً جاءه عن جدارة وحاز به هذا الوسـام سـنى الفخر

عرفـت الأديب الكاتب الفاضـل الذي مزاياه لا تحصى كما الأنجم الزهر؟

عرفـت صـلاح الدين من ينتمي إلى كرام بني العباس ذي الشـيم الغر؟

فسـلم عليه آب من خير رحلة وسـله عن الأتراك ينبيك عن خبر

وعن غادة هيفاء كيف أحبها وهام بها شـيخُ اللشـيخ من عذر؟

وعـن كيد أهل الحب في الشرق هل

حـكى مكايـد أهـل الحـب في الغـرب والمكـر

وإلا فخذ هذي الرسـالة انه روى قصص الأخبار عنهم كما يدري

حلى وضعها لفظاً ومعنى تناسـبا فهل عند منشي حسـنها مسـبك التبر

عروسـاً بدت في حلة من بلاغة وثوب قشـيب فيه مبتدع النثر

تركيا: أمس - اليوم - غدا
المقدِّمة

•••

لا شك أن كل فرد في هذه البلاد العربية، التي سلخت عن الامبراطورية العثمانية أو كما كانت تسمى سابقاً الدولة العلية العثمانية، يرغب في معرفة شيء عن حالة تركيا التي كانت حتى زمن غير بعيد حاكمة هذه البلاد، وعلى الأخص بعد أن انقطعت بيننا وبينها أواصر كانت محكمة الرباط. نعم يود كل فرد أن يعرف شيئاً عن طفرتها الاجتماعية ورقيها السياسي وتطورها الأخلاقي وانقلابها الفكري.

يسمع النشئ الحديث من آبائه آن فلسطين وغيرها من البلاد العربية كانت قبل الاحتلال جزءاً من الامبراطورية العثمانية، ولكنه لا يعرف ذلك بنفسه لأنه كان وقتئذ حدثاً. لهذا أراني مضطراً لأن أذكر نتفة من تاريخ تلك الأمة العريقة، ثم انتقل لما شاهدته بعيني وما وقفت عليه في رحلتي وما عرفته بعد الاختبار بنفسي في الأستانة العاصمة القديمة التي فقدت عظمتها بعد انتقال دوائر الحكومة منها إلى أنقرة تلك المدينة التي أصبحت محط رجال الساسة وموضع اعجاب الناس وقبلة الأنظار.

ولا أقصد بما أكتب إلا أن أضع للناطقين بالضاد وهم على أبواب انقلابات أخلاقية واجتماعية، صورة طبق الأصل الحالة هناك لنأخذ بالحسن ونجتذب السيء علنا نعتبر. والعاقل من يرى العبرة في غيره فيعتبر بها.

لمحة تاريخية

يتصل نسب العثمانيين بالتتر الذين كانوا يقطنون بجوار حدود الصين الشمالية وهم المعروفون بالشجاعة وشدة البأس وكان قسم منهم ينتسب إلى شخص يدعى «ترك» نزح عن بلاده وأقام في تركستان حتى ازداد عدده ووسع بلاده تم ظهر «جنكيز خان» القائد المغولي وغزا قبائل الأتراك التي أذعنت له ما عدا قبيلة واحدة تتألف من أربعمائة عائلة نزحت عام ١٢٣٠ بزعامة أميرها سليمان (جد السلطان عثمان الغازي) الذي سقط عن جواده أثناء عبوره نهر الفرات فمات، فاستلم القيادة بعده ابنه «أرطوغرول». وبينما كان سائراً هو ومن معه في السهول وجد جيشين يتحاربان فانضم إلى أحدهما فنصره وكان هذا الجيش جيش السلجوقيين وكان الجيش المقهور جيش المغول. ثم اعتنقت هذه القبيلة الاسلام من تلقاء نفسها وفي عام ١٢٨١ تولى الزعامة (السلطان عثمان) وهو رأس الأسرة السلطانية التي أنجبت خمس وثلاثين سلطاناً من عصبة رجل واحد وهم اتسعت المملكة العثمانية ومن هؤلاء جاء محمد الثاني وهو رابع السلاطين ففتح الأستانة عام ١٤٥٣ وعلى اثرها سقطت الامبراطورية الشرقية وكان لبعض السلاطين انتصارات باهرة حتى كانت المملكة العثمانية على زمن السلطان سليمان ممتدة من بودابست على الطونة شمالاً إلى شلالات النيل جنوباً ومن الفرات شرقاً إلى جبل طارق غرباً وبعد ذلك جاء دور التدلي والانحطاط فتقلص ظل عظمتها لأسباب كثيرة أهمها تدخل الأجانب في القضاء، وفي إدارة دفة الحكومة والبلاد وهذا ما يسمى بالامتيازات الأجنبية التي كانت منتشرة في الشرق انتشاراً

مريعـاً وهـا إني انقـل للقـارئ بضعـة أسـطر عـن تلـك الامتيـازات عـن كتـاب «القانـون الـدولي والمللـي الخـاص» تأليـف العلامـة المسـتر كـودي مديـر معهـد الحقـوق في القـدس الـذي نقلتـه إلى العربيـة أنـا وصديقـي السـيد حسـن صدقـي بـك الدجـاني. جـاء في الصفحـة ٩١:

«عندمـا نشـير إلى الامتيـازات الأجنبيـة باللغـة القضائيـة تخيـل إلينـا أنهـا مجموعـة امتيـازات خاصـة كان يتمتـع بهـا الأجانـب في الامبراطوريـة العثمانيـة إلى عهـد قريـب. ومـن الامتيـازات الرئيسـية مسـألة الصلاحيـة، ففـي المسـائل الحقوقيـة كان الأجنبـي يقـاضى إمـا أمـام المحاكـم القنصليـة التابـع لهـا، وإمـا أمـام المحاكـم العثمانيـة في القضايـا التـي يمكـن أن يداعـى بهـا. وكان حضـور ترجـمان القنصليـة وتوقيعـه عـلى القـرار لازمـاً، وكذلـك الأمـر في المسـائل الجزائيـة. وبالإضافـة إلى هـذه الامتيـازات المتعلقـة بالصلاحيـة كان يسـتثنى الأجانـب عمليـاً مـن التشريـع المحـلي. ولم يكـن بالإمـكان تنفيـذ القانـون المحـلي عليهـم بـدون موافقـة الـدول ذات الامتيـازات».

ولمـا ظهـر السـلطان عبـد الحميـد الثـاني واسـتبد في الملـك وألغـى الدسـتور ووقـع الانقـلاب العثـماني وخلـع هـو وتـولى بعـده السـلطان المسـكين محمـد رشـاد اندلـع لهيـب الحـرب العظمـى وكانـت النتيجـة كـما يعلمهـا كلنـا أن احتـل الحلفـاء الأسـتانة ذلـك الاحتـلال الـدولي الـذي لم يطقـه الأتـراك رغـم ضعفهـم؛ لأن البسـالة، والحـق يقـال، خلـق مـن أخلاقهـم، والثبـات صفـة مـن صفاتهـم وهـذا مـا دعـى نابليـون أن يقـول «أعطـوني جيشـاً عثمانيـاً أفتـح بـه العـالم».

النبوغ الفقير

يجب أن لا نعجب إذا ما رأينا النبوغ فقيراً أكثر منه غنياً، لأن ابن النعمة الذي لم ينم على غير الفراش الوثير والذي لم يأكل في غير أطباق الفضة والذهب والذي هو ربيب الجاه والذي لم يذق مر الحياة، لا ينظر إلى الحياة بالمنظار الأسود الذي ينظر إليها به ابن الكوخ، الذي ألف الخشونة وحلب شطري الدهر، والذي هو ربيب الفاقة والاملاق والذي يرى أن الرجل هو من اعتمد على نفسه. وإذا ما رجعنا نحن إلى تاريخ الأمم وجدنا أعظم الفضل في رقيها واصلاحها ونهوضها يرجع إلى أولئك الأفراد الذين نبتوا في أكواخ الفقر غير معتمدين على أحد غير الله وساعدهم فعلموا وعملوا مخلصين لوجه الله والوطن.

خذ مثلاً «موسوليني» وهو ابن حداد قروي كان غلاماً في حانة نبيذ ثم خادماً في منزل فمتشرداً فناظر مدرسة فمحرراً في جريدة اشتراكية فحمالاً في فندق فنزيلا في السجون اثنتي عشرة مرة؟! وخذ أيضاً رضاخان بهلوي الذي كان سائساً للخيل، صعلوكاً ومثل هذين مصطفى كمال باشا الذي كان ابن صانع سجاد فقير في مدينة «سلانيك» وهو كموسوليني كان معلماً فناظر مدرسة فجندياً كما سترى.

مصطفى كمال

نهضت تركيا نهضة الأسد الهصور يدافع عن عرينه بقيادة بطلها الغازي مصطفى كمال ذلك النابغة الذي لا نبالغ إذا قلنا أن تاريخه منذ وضعت الحرب أوزارها هو تاريخ تركيا الحديث. ولد في مدينة (سلانيك) عام ١٨٨٨ وأصل أسرته من اليونان، مات أبوه وهو صغير

فكفلـه خالـه وأشـغله (قطـروزاً) في مزرعتـه غـير أن والدتـه أرسـلته إلى المدرسـة الاعداديـة في سـلانيك ولكنهـا لم تلبـث أن أخرجتـه شـفقة بـه لأن المدرسـة عاقبتـه لضربـه رفيقـاً مـن رفاقـه. انتسـب للمدرسـة العسـكرية حيـث لقـب بكـمال لما أظهـره مـن الـذكاء والنبـوغ ويقـال أنـه كان يحـب فتـاة وهـو في الثانيـة عـشرة مـن عمـره وكان حالمـاً ينـصرف مـن المدرسـة يذهـب لبيتـه لتبديـل ثيابـه واصـلاح هندامـه ثـم تخـرج ميمـما نحـو بيـت معشـوقته ومـن هنـا نـرى سـبب ميـل الغـازي الآن للتأنـق والاعتنـاء في اللبـاس والـذوق في اختيـار الهنـدام.

وكان لـه شـغف في درس الفرنسـية والتعمـق في الأدب والتمـرن عـلى الخطابة وكتابـة المقـالات والتحريـر في الصحـف فأنشـأ جريدتـين وهـو في المدرسـة الحربيـة ومـن أجـل هـذا بقـي رهـن التوقيـف بضعـة أشـهر. وبعـد أن نـال شـهادة المدرسـة العسـكرية دخـل عـدة مـدارس أعـلى منهـا حتـى بلـغ مدرسـة أركان الحـرب، وهنـاك أنشـأ جريـدة خطيـة مـع رفاقـه ضد اسـتبداد عبـد الحميـد ولكنـه مـا لبـث أن انفضـح أمـره وحكـم عليـه بالسـجن ثـم نفـي إلى سـوريا فأسـس فيهـا جمعيـة تدعـى (الحريـة) كانـت لهـا فـروع في بـيروت ويافـا والقـدس ومثلهـا في مكدونيـا وهـذه هـي الجمعيـة التـي انقلـب اسـمها إلى جمعيـة الاتحـاد والترقـي، وبعـد إعـلان والمشروطيـة، أرسـل إلى طرابلـس الغـرب لمحاربـة الطليـان فظـل قائـداً عامـاً للجيـوش العثمانيـة مـدة سـنة عـاد بعدهـا للاسـتانة بسـبب حـرب البلقـان.

وعنـد إعـلان الحـرب العظمـي كان يعـارض في دخـول تركيـا الحـرب مؤثـراً بقاءهـا عـلى الحيـاد ولم يكـن راضيـاً خاصـة عـن انضـمام أمتـه للألمـان

لاعتقـاده وقتئـذ أن أكـثر رجـال تركيـا كانـوا يميلـون إلى تسـليم قيادهـا للألمـان بـدون قيـد وشرط وخاصـة قيـادة الجيـوش وقـد قـال عـن ذلـك مـا نصـه:

«بـن اوردونك بـلا قيد ولا شرط؛ بوتون أسراري ايله؛ المان هيئت

«عسـكرية سنه توديع وتسـليم ايله مسندن جوق متأثر اولدم»

أي «لقـد تأثـرت جـداً مـن تسـلم قيـاد الجيـش بـأسراره بـلا قيـد ولا شرط إلى الهيئـة العسـكرية الألمانيـة»

وكان دومـاً ينـذر أولي الأمـر في تركيـا وخاصـة في الصيـف الأخـير مـن أيـام الحـرب إذ أصبـح الألمـان محتلـين تقريبـاً للإمبراطوريـة العثمانيـة احتـلالاً عسـكرياً وكانـوا يرشـون كل تـركي يشـتمون منـه رائحـة المعارضـة كـما حاولـوا ارشـاء الغـازي نفسـه الـذي لم يتمكـن مـن كتـم هـذه الحقيقـة بقولـه:

. قولايجـه تخمـين ايتمك ممكندركه مارشـال فالكنهاين بني؛ بلكه ده.

«بنـدن باشـقه برجو قلريني بويله صنـد يقلرله التون ويرهرك اغفال

«ايتمك يولنده ايدى»

أي «أنـه مـن السـهل أن نظـن أن المارشـال فالكنهايـن كان يقصـد اغفـالي وقـد يكـون اغفـال كثيريـن غـيري بتقديـم مثـل هـذه الصناديـق المملـوءة ذهبـا».

وقـد دافـع في الدردنيـل أثنـاء الحـرب العظمـى دفاعـاً مجيـداً رد بـه المهاجمـين وقتئـذ وقاتلهـم بنفسـه دون أن يتلقـى أمـراً مـن القيـادة العليـا

كـما يتطلـب القانـون العسـكري وعـلى اثرهـا ترقـى إلى رتبـة أمـير لـواء ودعـي بالباشـا. وفي تمـوز عـام ١٩١٨ وصـل إلى نابلـس للمـرة الثانيـة لقيـادة الجيـش السـابع الـذي كان مرابطـاً بـين نابلـس والقـدس. وقـد جـيء إليـه وهـو في نابلـس بأسـير انجليـزي فهـم منـه أن هجومـاً مريعـاً سـيقوم بـه الانجليـز في اليـوم التاسـع عـشر مـن شـهر أيلـول وقـد جـرى ذلـك بالفعـل وقاتـل الغـازي الانجليـز في ذلـك التاريـخ قتـال الأبطـال مـدة ثلاثـة أيـام متواصلـة، وأخـيراً وبعـد سـقوط طولكـرم والنـاصرة وحيفـا اضطـر لإخـلاء نابلـس قاصـداً دمشـق فحلـب. وبعـد الحـرب عـاد إلى الأسـتانة حيـث بـدأ تدبـيره لتخليـص بـلاده. وهنـاك في محلـة (الشيشـلي) في الأسـتانة في بيـت كان يسـكنه بالإجـارة اجتمـع وأصدقـاءه وتعاهـد جميعهـم عـلى خـلاص الوطـن ولا يـزال هـذا البيـت قائمـاً عـلى أحـد الشـوارع الرئيسـية الجميلـة وقـد أهـداه صاحبـه إلى الغـازي باحتفـال فخـم عـام ١٣٤١. ثـم عينتـه الحكومـة وقتئـذ مفتشـاً عامـاً للجيـش في الأناضـول وتلـك كانـت أمنيـة أعدائـه الذيـن كانـوا لا يفتـأون لحظـة عـن التنكيـل بـه لأنـه كان يسـعى لتشـكيل حـزب معـارض فـأرادت الحكومـة ابعـاده وهـذا كان غايـة مـا يتمنـاه إذ وافـق هـذا التعيـين مرامـه فـكأن القـدرة العاليـة أو حـت إلى أعدائـه بإبعـاده وشـاءت أن يكـون النـصر عـلى يـده فـكان لم يكـن في الأناضـول جيـش منظـم وإنمـا كانـت هنـاك فلـول مـن بقايـا الجيـوش العثمانيـة كلهـا وفيهـا كثـير مـن العـرب وإني لأذكـر أني رأيـت اثنـين منهـما في الأسـتانة عـام ١٩٢٦ ولـدى الاسـتيضاح منهـما علمـت أنهـما مـن جبـل الخليـل وكانـا مشـوهين مـن اثـر المعـارك.

وفي الأناضـول بـل في ارضروم عقـد المؤتمـر الـتركي وهـو نـواة المجلـس الوطنـي الكبـير الـذي تعـين لـه الغـازي رئيسـا.

وفي تلـك الأثنـاء أخـذت نـيران الحسـد تلتهـم قلـوب بعـض رجـال الأسـتانة دسـوا للسـلطان ووشـوا بـه فدعـا الدامـاد فريـد باشـا إلى تأليـف وزارة مضـادة الحركـة الوطنيـة ففعـل وفي اليـوم الحـادي عـشر مـن شـهر نيسـان عـام ١٩٢٠ أصـدر شـيخ الاسـلام فتـوى ضـد الوطنيـين دعـا بهـا المؤمنـين إلى نـصرة الخليفـة وبالفعـل سـيرت وزارة الدامـاد جيشـة بقيـادة أحمـد انزائـور باشـا الجركـسي القتـال الوطنيـين إلا أن قـوة ايمـان جيـوش الوطنيـين أبـادت جيـش الحكومـة وهكـذا تـم الغـازي النـصر ومـزق جيشـه معاهـدة ١٠ أغسـطس ١٩٢٠ المعروفـة معاهـدة سـيفر وفي شـهر تشريـن ثـاني عـام ١٩٢٢ اسـترد الوطنيـون الأسـتانة بعـد طـرد اليونـان مـن ازمـير وباقـي الأناضـول.

إلغاء الخلافة

كنت أحد هؤلاء الذين آخذوا الأتراك على إلغاء الخلافة وقد اجتمعت بأحد رجالات الترك في الأستانة يتكلم العربية وله المام واسع في الأدب العربي وكان مما تكلمنا عنه موضوع الخليفة. وكان أول ما قال بهذا الصدد:

خليفة في قفص بين وصيف وبغا

يقول ما قالا له كما تقول الببغاء

فذكر في هذان البيتان بما قاله ابن شرف:

مما يزهدني في أرض أندلس أسماء معتصم فيها ومعتضد

القاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد

وبعد أخذ ورد وجدال عنيف بيننا قال: «نعم إن نصب الخليفة عند المسلمين واجب فإذا تركوه أثموا كلهم وما الأتراك إلا عدد ضئيل جداً بالنسبة لمسلمي العالم فلم لا يفكر باقي المسلمين بهذا المركز ما داموا يعتقدون أن الخلافة في قريش؟! لم تخلى جلالة ملك مصر عن فكرة الخلافة حينما عرضها عليه المغفور له سعد زغلول باشا يوم كان رئيساً للوزارة؟ لألم يجبه قائلاً: أن هذا المنصب ولو أنه يزيدني فخراً ومجداً إلا أن مصالح بلادي يجب أن تكون أهم من سواها ومقدمة على جميع المشاغل الأخرى وإنني لا أنسى الصعاب التي كانت تعانيها تركيا بسبب قيام السلطان بأعباء الخلافة فإذا ما قبلت الخلافة أدى

ذلـك إلى زيـادة تعقيـد القضيـة المصريـة ولهـذا فإننـي أتخـلى عـن هـذه الفكـرة

الخلافة

الخلافـة كـما نعلـم النيابـة ويـراد منهـا الإمامـة وبعبـارة أخـرى هـي رياسـة عامـة في أمـور الديـن والدنيـا بالنيابـة عـن النبـي صـلى اللـه عليـه وسـلم ولـذا وجـب عـلى المسـلمين اطاعـة أمـر الخليفـة ظاهـراً وباطنـاً قلبـاً وقالبـاً. وقـد جعـل بعـض العلـماء الخليفـة ظـل اللـه في أرضـه كـما زعـم أبـو جعفـر المنصـور لأنـه يسـتمد سـلطانه منـه تعـالى. وقـال آخـرون أن الخليفـة يسـتمد سـلطانه مـن الأمـة وهنـاك أنـاس يفرقـون بـين الخليفـة والملـك بدليـل مـا جـاء في الصفحـة ١٩١ مـن مقدمـة ابـن خلـدون عـن تحـول الولايـة مـن خلافـة إلى ملـك.

ولكـن الحقيقـة هـي أن الخلافـة راجعـة إلى اختيـار النـاس كـما جـاء في مقدمـة ابـن خلـدون أي أنهـا ترتكـز عـلى الرغبـة والاختيـار وليـس عـلى السـيف والمدفـع. ويؤلمنـي أن أذكـر هنـا مـا قرأتـه عـن الوليـد بـن يزيـد بـن عبـد الملـك مـن أنـه فتـح المصحـف ووقـع بـصره عـلى الآيـة {واسـتفتحوا وخـاب كل جبـار عنيـد} فغضـب ومـزق المصحـف ونطـق بقـوارص الـكلام قائـلاً:

تهـددني بجبـار عنيـد فهـا أنـا ذاك جبـار عنيـد

إذا مـا جئـت ربـك يـوم حشر فقل يا ربي مزقني الوليد

وقـد ارتكـب كثـير مـن الخلفـاء المحرمـات بسـبب الخلافـة إذ مـا الـذي دفـع يزيـد بـن معاويـة إلى سـفك دم الحسـين بـن فاطمـة بنـت الرسـول؟ كـما وكلنـا يذكـر خـروج الحسـين بـن عـلي عـلى خليفـة المسـلمين. وإني أذكـر أن المسـلمين بقـوا مـدة بـلا خلافـة كـما نحـن الآن وذلـك بعـد قتـل الخليفـة العبـاسي المسـتعصم باللـه حيـث بقـي المسـلمون بـدون خليفـة ثلاثـة سـنين. وقـد أخـذ العثمانيـون الخلافـة عـام ٩٢٣ هجريـة حيـث نقـل السـلطان سـليم آخـر خلفـاء العباسـيين إلى الأسـتانة. وفي أوائـل القـرن التاسـع بـدأ سـلاطين آل عثـمان بتلقيـب أنفسـهم بخلفـاء العباسـيين.

وفي الواقـع لا فـرق بـين ملـك يوطـد سـلطانه بـرؤوس الأسـنة وفوهـات المدافـع وبـين خليفـة يعتـلي عـرش الخلافـة عـلى الأشـلاء والجماجـم أو مـن غـير أن يكـون للمسـلمين كلمـة في اختيـاره.

لقـد اغتصـب الأتـراك الخلافـة وردوا الآن مـا اغتصبـوا ويقولـون الآن أنهـم ذاقـوا مـن الخلفـاء الأمريـن ولاقـوا الصعـاب وجابهـوا الشـدائد فـأرادوا إراحـة بلادهـم لأنهـا كانـت مبعثـاً للحـروب الأهليـة وإراقـة الدمـاء ووقـوع القلاقـل ولـذا فقـد ركنـوا إلى إلغائهـا وهـا تركيـا تسـير كـما يقولـون صعـداً في مراقـي الحضـارة ومعـارج المدنيـة دون مـا حائـل.

الرّحلة

***

في مساء اليوم السادس والعشرين من شهر آب عام ١٩٣١ أبحرت من حيفا برفقة كل من علي بك حسنا قاضي المحكمة المركزية في نابلس ومحمد بك البرادعي العباسي كبير حكام الصلح في القدس وعائلته وربعي بك مراد رئيس قسم دائرة المياه بالقدس وقرينته قاصداً الأستانة ترويحاً للنفس ومشاهدة الأهل والأقارب.

كان الجو هادئاً والبحر ليناً فلم نشعر بأقل تعب بل كنا كأننا في بيوتنا وكانت الباخرة مركبة ضخمة مرتفعة جبل شامخ عائم فوق الماء تتكسر الأمواج التي كانت تثيرها ريح المساء من آن إلى آخر على أقدامه.

وكانت كل أسباب الراحة متوفرة في الباخرة وكل ما تتطلبه النفس كان موجوداً في حديقة صناعية جميلة للنزهة إلى مقهى إلى مرقص إلى موسيقى. وأما عن الوجبات فلا تسل - خمس في النهار- والغريب أننا كنا نأكل ولم نمتنع عن واحدة!! مما يدل أن لهواء البحر تأثيراً في الشهية عظما... والآن وقد جلست أمام منضدتي أخط هذه الكلمة أخذت أفكر كيف كنت أقدر على تناول مثل هذه الوجبات بل كيف كانت معدتي تستوعب تلك الأطعمة الدسمة الكثيرة!!!

وكم كان سرورنا عظيماً حينما أطلت الباخرة على مدخل جناق قلعة، فأسرعنا إلى علو لنشاهد تلك الجبال الشامخة والصخور الصماء والمدافع المطلة أفواهها من الجانبين.. ومما رأينا عرفنا ما لهذا الموقع

مـن الأهميـة العسـكرية... وهنـاك شـاهدنا آثـار القـلاع والحصـون المتهدمـة والخنـادق العميقـة الغـور المتعرجـة فتذكرنـا مـا كنـا نسـمعه عـن وفـرة المعـدات الحربيـة التـي كانـت هنـاك وقـت الحـرب والتـي كانـت تقـوى عـلى صـد أعظـم أسـطول مـن اجتيـاز المضيـق وقـد اسـتغربنا كيـف حـاول الحلفـاء مهاجمـة تلـك الحصـون المخيفـة ولكـن لا غرابـة إذا اعتقدنـا بقـوة الايمـان وقلنـا إن المسـتحيل كلمـة في قامـوس المجانـين. وشـد مـا كان سرورنـا حينـما أطلـت علينـا البقعـة المعروفـة بانـا فارطـا التـي رد بهـا مصطفـى كـمال هجـوم كيتشـنر الـذي اسـتمر ثلاثـة أيـام متواليـة خيـف أثناءهـا عـلى الأسـتانة مـن السـقوط.

وهنـاك موقـع آخـر يدعـى (آري بـرون) والآن يسـمي بموقـع كـمال وفيـه أيضـاً أظهـر الغـازي العجائـب. ومـما شـاهدنا تأكدنـا أن الأراضي عـلى طـرفي المضيـق ليسـت قابلـة للزراعـة ولا للسـكن ولذلـك لا نجـد عـلى جانبيـه إلا قريتـين عامرتـين أولهـما القلعـة السـلطانية والثانيـة كليبـولي. وهنـاك عـلى الضفـة اليـسرى تقـوم ثلاثـة شـواهد تمثـل الجنـدي الانجليـزي فالفرنـسي فالـتركي المجهـول. وفي مسـاء ذلـك اليـوم قدمـت لنـا آنيـة يبلـغ طولهـا ثلاثـة أربـاع المـتر تقريبـاً وعرضهـا ثلـث طولهـا تقريبـاً وعليهـا سـمكة بهـذا الحجـم اصطيـدت مـن ميـاه جنـاق قلعـة فطـاف بهـا غـلام المطعـم عـلى موائـد مـن اجتمعـوا الطعـام يريهـم إياهـا باسـماً وكأني بـكل مـن رآهـا يـردد قـول الشـاعر:

أرى ماء وفي ظمأ شـديد ولكن لا سـبيل إلى الورود

ثـم اختفـى بهـا عـن الأنظـار بـين قهقهـة عـارفي هـذه الأصـول وغضـب جاهليهـا. ولكـن مـا هـي إلا دقائـق حتـى عـاد غلـمان الموائـد يحملـون أطباقـاً مـن أجـزاء تلـك السـمكة اللذيـذة الطعـم. في صبـاح يـوم الاثنـين الواقـع في ١٩٣١/٨/٢٩ نهضـت مبكـراً في السـاعة الخامسـة ولمـا يغمـض لي جفـن وتطلعـت مـن النافـذة فـإذا بالشـاطئ أراه قريبـاً فأيقظـت الرفـاق وأبلغتهـم خـبر وصولنـا إلى الأسـتانة فقـام أحدهـم متثاقـلاً يتميـز غيظـاً لأني أيقظتـه باكـراً والآخـر قـام متثائبـاَ يفـرك عينيـه. ثـم أسرعـت إلى ثيـابي فلبسـتها وبعدئـذ صعـدت إلى أعـلى مـكان في الباخـرة لأرى الأسـتانة وأمتـع الطـرف مناظرهـا الخلابـة إلا أن شـدة الـبرد وكـثرة الضبـاب وارتفـاع الهضـاب حـال دون ذلـك فعـدت إلى المقهـى أتطلـع مـن وراء الزجـاج الـذي كان يصـد عنـي لسـعات ريـح الصبـاح البـاردة.

وأخـيراً بـدت الأسـتانة بعظمتهـا وأطلـت علينـا مآذنهـا وقبابهـا وأخـذت الباخـرة تسـير بطئـاً بينـما الشـوق يدفعنـا لأن نقـذف بأنفسـنا إلى اليابسـة كأننـا عيـل منـا الصـبر أو سـئمنا منظـر زرقـة الميـاه مـع أن الخضـم لم تتلاطـم أمواجـه.

وفي السـاعة الثامنـة ألقـت الباخـرة مرسـاها مسـتندة إلى الرصيـف ومـا هـي إلا بضـع دقائـق حتـى صعـد شرطيـان تركيـان يتيهـان بمشـيتهما، شـأن كل شرطـي في جميـع البـلاد التأشـير عـلى جـوازات السـفر وجلسـا في صالـون الدرجـة الأولى وهنـاك وقفنـا أمامهـما ننتظـر دورنـا وطبعـاً وقـف مـن كنـت برفقتهـم كأننـا أمـام قائـد عظـم... وطـال وقوفنـا حتـى مللنـا فالتفـت إلى أحـد الرفـاق قصـد أن أقـول لـه بالعربيـة (طبعـاً). يظهـر لي أن شـيطان

الغـرور مسـتولٍ عـلى سـعادة أو خامـة الشرطيـين، ولكنـي أحمـده تعـالى أني لم أقـل ذلـك لأن أحـد الشرطيـين خاطـب حينئـذ أحـد الـركاب باللغـة العربيـة بلهجـة الدمشـقي. وفي السـاعة التاسـعة غادرنـا الباخـرة إلى اليابسـة شـاكرين حامديـن.

الأستانة

تأسسـت عـام ٦٥٧ ق.م. وسـميت بيزانتيـوم نسـبة إلى مؤسسـها بيزانـس وقـد أعـاد بناءهـا وزاد فيهـا قسـطنطين الأول عـام ٣٣٠ ب.م. وأسـماها «رومـا الجديـدة، ولكنهـا سـميت بعدئـذ قونسـطانتينوبل أي مدينـة قسـطنطين. ومـن أسـمائها اسـتانبول وهـو مأخـوذ عـن عبـارة «اس تـين بـولي» أي «إلى المدينـة» وهـو الاسـم المعروفـة بـه الآن، ودار السـعادة، ودار الخلافـة، وفـروق. وقـد حاصرهـا العـرب مرتـين ولكـن لم يتيـسر لهـم فتحهـا وقـد فتحهـا الصليبيـون وفي اليـوم السـادس مـن شـهر مايـس عـام ١٤٥٣ حاصرهـا السـلطان محمـد الفاتـح مـدة أربعـين يومـاً سـقطت بعدهـا في حوزتـه.

جـو الأسـتانة عـلى وجـه عـام جميـل جـداً وإن كان الـبرد يشـتد أحيانـاً وقـد علمـت أن في النيـة جعلهـا مصيفـاً ولهـذا تشـكلت لجـان الـدرس هـذا المـشروع والعمـل لترويجـه. والاسـتانة مدينـة خالـدة وكانـت سـيدة العـالم الشرقـي قرونـاً ومركـز الخلافـة عصـوراً. ضمـت العظمـة وحـوت الجـمال فكانـت منبعـاً للتشريـع ومنبتـاً للحضـارة البيزنطيـة ومركـز للقـوة العثمانيـة. وتراهـا الآن صامتـة بعـد أن كانـت حافلـة وحدائقهـا مهملـة بعـد أن كانـت تصـدح عـلى أفنائهـا البلابـل وترتـع فيهـا الغـزلان وأصبـح

المرء لا يرى فيها غير تماثيل «الغازي» على مفارق الطرق وفي المنتزهات العمومية وكلها ترمز إلى القوة والعبقرية فتارة تراه بلباسه العسكري وأخرى على جواده وطوراً مع حاشيته.

أجمل ما في الأستانة بوسفورها الذي يصل بين بحر مرمرة والبحر الأسود وهو المخرج الوحيد لمياه البحر الأسود الغزيرة التي تندفع بشدة إلى البوسفور الضيق فتحدث تيارات قوية تدعى (آقنتي) يراها المرء بعينيه. ولكل تيار اسم خاص وأهمها تيار الشيطان الذي يكون أشبه بدوران الرحى إذ تضطرب مياهه وتثور كأنها في إناء على نار تغلي. وعلى جاني البوسفور أجمل المناظر من قصور شاهقة وأشجار باسقة ورياض غناه وغابات كثيفة ومنازل فخمة ويختلف عرض البوسفور إذ يتقارب الشاطئان تارة لمسافة لا تزيد على خمسمائة متر ويتباعدان أحياناً إلى مسافة أربعة كيلو مترات.

وعلى الشاطئ الأيسر منتزه جميل جداً يؤمه الناس أيام الجمع والأحاد ويدعى «ببك» قام عليه قصر والدة الخديوي السابق وينتهي البوسفور عند الجسر الجديد الذي يصل ما بينه وبين ما يدعى بالقرن الذهبي، وعلى هذا الجسر يشتد الزحام وهو يصل بين مركزي القاطرات الكهربائية وهما (قره كوي) في غلطه و(أمين اوني) في استانبول. وطوله ٤٥٠ متراً طرفاه ثابتان ووسطه متحرك يفتح لمرور البواخر من وإلى القرن الذهبي.

وقد كان فيما مضى يؤخذ من كل فرد يمر على الجسر قرش تركي غير أن الحكومة الكمالية ألغت ذلك وأضافت القرش على أجرة الركوب في

القطارات الكهربائية فأحسنت صنعاً لأن موقف محصلي القروش على طرفي الجسر وبرقابهم الصناديق أشبه بمن يستعطي من الفقراء. وعلى يسار الجسر من جهة البوسفور ترسو السفن التي تسير في البوسفور وتنقل الناس بأجور رخيصة جداً إلى الأحياء الواقعة على جانبيه كقاضي كوي وحيدر باشا وجزائر الأمراء وما أشبه، وكلها لشركة تدعى الشركة الخيرية.

وأما القرن الذهبي فهو خليج طوله أحد عشر كيلو متراً تقريباً وعرضه يتراوح بين أربعمائة وخمسين متراً إلى خمسمائة متراً وأما عمقه فمن مترين إلى خمس وأربعين متراً وينتهي في مكان يدعى (كاغد خانه) وهو منتزه جميل يقصده الناس في شهر نيسان من كل عام والوصول إليه يكون إما بحراً وإما براً ولكني أنصح للزائر أن يزوره بحراً إذ يمر في طريقه بجامع السلطان أيوب وأعني به أبا أيوب الأنصاري. وباني هذا الجامع هو السلطان محمد الفاتح ويعتبره الأتراك أقدس جامع في الأستانة وكانت الحكومة العثمانية تقيم فيه حفلة تقليد سيف عمر ابن الخطاب لكل أمير من آل عثمان يرقى العرش. وفي الأستانة غير هذا المسجد أربعمائة وثمانون مسجداً منها ٩٨ مسجداً كانت كنائس في الأصل وأهمها جامع (آيا صوفيا). وفي الأستانة عدة كنائس أهمها كنيسة الروم الأرثوذكس الكائنة في الجهة المعروفة باسم «فنار» ومن المنتزهات الجميلة الحديقة المعروفة باسم «تقسيم» المطلة على بحر مرمرة والبوسفور والقرن الذهبي وكثير من الأحياء الكبيرة ويلي هذه الحديقة مدرسة الحربية التي تعد، صف الضباط. وكانت العسكرية سابقاً تسير على الأساليب والنظم الفرنسية

ولكنها الآن أخذت تسير على الأصول الانكليزية حتى «بحلق الذقن والشوارب» وقد فعل ذلك الغازي نفسه وتبعه الجميع. ويجد المرء في الضباط العسكرين الشجاعة والنباهة واللباقة والنظافة بينما يرى الأفراد على عكس ذلك. وإني لم أجد فرقاً بين الجندي العثماني وقت الحرب وبين الجندي التركي الآن. وكأني بالحكومة التركية وهي تجمع المال بأنقرة وتحشد الجنود تنتظر أمراً فجائياً تستعد له من الآن!!

علل وأسباب

يقول البعض أن انحطاط تركيا في الزمن الماضي لا يعزى لعجز أبنائها أو تقصير أفرادها ولكن لحصر أنظمتها وقيود قوانينها وقد قال العلامة المستر كودي مدير معهد الحقوق في القدس بإحدى محاضراته ولو كانت الإدارة التركية حسنة مثل قوانينها لكانت تركيا دولة مثلى.

نحن نعلم تماماً أن مآخذ القوانين التركية الحديثة منها والقديمة هي القوانين الأجنبية، فأمامنا الآن قانون الجزاء العثماني المنقول مادة فمادة مع بعض التحوير عن القانون الفرنسي ومثله أصول المحاكمات الحقوقية والجزائية وغيرها. وإننا لا نعيب تركيا لنحوها هذا المنحى لأن مثل هذه المآخذ (وتدعى في عرف المتشرعين بالمصدر التاريخي) تعد من أهم مصادر القانون التي منها العادة والدين والتشريع وأحكام المحاكم وغيرها ففرنسا مثلاً قانونها مشتق من القانون الروماني وقد كانت تركيا منذ القرن التاسع عشر جادة بصبغ بلادها بصبغة غربية بحتة وأما فكرة إحلال القوانين الغربية مكان القوانين العثمانية وخاصة الإسلامية منها ففكرة قديمة لم يجرؤ مفكروها على نشرها مع

أن القواعد الاجتماعية تتطلب تمشي القانون مع حاجات الناس، وتقدم الحياة الاجتماعية يتطلب إجراء التغييرات الدائمة فقوانين أمة غارقة ببحار البربرية لا يمكن تطبيقها على أمة أصبح بينها وبين البربرية مراحل واسعة.

لقد أحل الأتراك القانون المدني السويسري محل القانون المدني الإسلامي أي المجلة التي رأى المجلس الوطني أن من موادها البالغ عددها ١٨٥١ ثلاثمائة مادة فقط تطبق على حاجات تركيا وتلائم حياتها فهي لذلك لا تتلاءم مع روح العصر لأن الدين ثابت لا يتغير بينما الحياة كل يوم في تقدم ومع تقدمها تكثر الحاجات وما القوانين الحديثة كما يقولون ويقول بعض المتشرعين إلا نتيجة التبدلات في الحياة الاجتماعية في حين أن غيرهم من العلماء يرى أن يكون القانون ثابتاً لا يتغير بتغيير الحياة.

وقد أصبح الأتراك ينظرون إلى أنفسهم كأمة عريقة في المدنية تتقدم صعداً في مراقي الفلاح ولذلك فهم يعمدون إلى التشريع تارة والنقل أخرى ويرون مع غيرهم أن القانون يجب أن يتمشى مع حاجات الناس. وبهذه المناسبة يقول المستر كودبي في كتابه «مقدمة القانون» ما خلاصته: ,... ثم ظهر قانون جديد مختلف اختلافاً كلياً عن القانون الروماني في بلاد العرب وذلك هو القانون الاسلامي. في الإسلام يسير القانون والدين معاً خطين متوازيين فحيث ثبتت دعائم الدين ساد القانون وحيث تقهقر تلاشى كما في اسبانيا وصقليا لأن اعتناق الدين

الإسلامي يتطلب إطاعة القوانين... وقد أحلت أمم إسلامية كثيرة كثيراً من القوانين الأجنبية بدلاً من الشريعة....

لقد ألغت الحكومة التركية المحاكم الشرعية فثار ثائر بعض الل=أتراك وغيرهم عليها وقامت ضجة لم تلبث أن خمدت وإني لأجد للأتراك مبرراً لهذا الإلغاء لأن المحاكم النظامية وهي إسلامية وحكامها يدرسون القوانين من مدنية ودينية في امكانها القيام بوظائف المحاكم الشرعية وفي تركيا الآن محاكم تسمى بالمحاكم الصلحية وغيرها تسمى بالمحاكم الأصلية ومن اختصاصها أيضاً النظر في الأحوال الشخصية وأخرى تدعى بالمحاكم الجنائية وفوق كلها محكمة تمييز واحدة وبعد ادخال الحروف اللاتينية غدا من الصعب على كتاب الضبط في المحاكم أخذ الضبط خطاً ولذا ترى في كل محكمة كاتباً وأمامه آلة كاتبة (تايبرايتر) يطبع كل ما يقوله الطرفان بدلاً من تدوين ما يقال خطاً لسهولة الطبع عليها. ويظهر لي أن رجال القضاء اعتادوا على صوت الآلة ولم تعد آذانهم تنزعج كما حدث معي.

وقد سن المجلس الوطني الكبير قانوناً منع فيه البغاء وأقفلت المحلات العمومية ولكن قامت مقامها المحلات الخصوصية السرية وأضرار هذه لا تخفى على أحد وخاصة إذا علمنا أن في الأستانة سيدات فتحن بيوتهن للجمع بين الرجال والنساء مقابل أجر. فلا الحكومة عالمة بذلك ولا الطبيب يعلم ولذا نرى الأمراض الزهرية الفتاكة تنتقل لسيء الحظ ومنه إلى غيره وهكذا.. ومثل هذه الأمراض منتشرة انتشاراً مخيفة رغم احتياطات الحكومة وتشديداتها. كل هذا يجري على مرأى

ومسمع من البوليس الذي يغض الطرف مقابل درهمات أو ابتسامة غادة أو تثني فتاة.

البوليس هو كل شيء في الأستانة فلا تدخل إحدى دوائر الحكومة من مدنية أو عسكرية إلا وتجد فيها بوليساً فتخال أن الحكم العسكري يسود تركيا وقد لا تخرج ورقة أو معاملة من دائرة إلا بعد أن يوقع عليها البوليس ولا تتم معاملة إلا بمعرفته. والبوليس هو كما كان عندنا في السابق ولباسه هو هو. وأما من حيث لطفه ودماثة أخلاقه فبعضه لطيف جداً كالبوليس رقم ٢٤٢٤ يستقبلك بكل حفاوة وخاصة حينما يعلم أنك أجنبي والبعض الآخر لا ينظر إليك إلا شذراً ولا يخاطبك إلا بأقسى العبارات وأشد النبرات، وأما باقي الموظفين فليس بيدهم حل أو ربط فإذا ما دخلت عليهم وجدتهم مرتبكين يتهامسون كان لهم شكوى لا يجرؤون على ابدائها أو مظلمة لا يقوون على بيانها وبالرغم من هذا فإن الواحد منهم يرى في نفسه كفاءة لأعظم الأعمال (ولكن لا عن جدارة) بل لأنه موظف ظناً منه أن الموظف فوق الجميع.... فإذا ما قدمت له ورقة لتحويلها أو قيدها فقط يكلفك أن تحضر بعد أسبوع مع أن هذا الأمر لا يحتاج لأكثر من دقائق. وقد دخلت مرة إحدى دوائر الحكومة وكانت لي معاملة قدمت أوراقها لأحد هؤلاء الكتبة الكثير عددهم بلا فائدة فكانت المحاورة الآتية:

الموظف: احضر بعد أربعة أيام!!

-: يا بيك أود السفر بعد يومين أرجوك تحويلها اليوم.

الموظف: لا تتكلم كثيراً أنا لا أتقاضى راتبي منك بل من الحكومة

وحينـما أتقـاضى راتي منـك فـإني أنهـي عملـك في الحـال.

-: ماذا تأمرون الآن؟

الموظف: ثمن طوابع!

-: كم تريدون؟

الموظف: على المروءة!

-: !!!

ولنبحـث في علـة هـذا! أن عاملـين مهمـين يدفعـان الموظـف لاقـتراف مثـل هـذه الاجـرام المشـينة بسـمعة حكومـة بـل أمـة شرقيـة فتيـة نـود أن نراهـا تسـكن الجـوزاء. وهـذان العامـلان هـما:

١- عـدم خشـية الموظـف أحـدة إلا الغـازي (مصطفـى كـمال). ففـي كل دائـرة بـل في كل غرفـة مـن دوائـر الحكومـة تجـد رسـمه معلقـاً محدقـاً بنظراتـه الحـادة التـي يرتجـف كل موظـف منهـا.

الغـازي يريـد بأمتـه نهوضـاً وبشـعبه تقدمـاً ولكـن بعـض رؤسـاء دوائـر حكومتـه لا يفكـرون بغـير أنفسـهم ويمكننـي أن أقـول أن سـبب عـدم تخـوف بعـض الموظفـين مـن رؤسـائهم هـو اتفاقهـم معهـم عـلى الـسراء والـضراء...

٢- قلـة الراتـب وعـدم دفعـه بانتظـام شـهراً فشـهراً. وعـلاج السـبب الأول سـهل عـلى الغـازي العبقـري إذ بإمكانـه اختيـار هيئـة تفتيشـية لمفاجئـة الدوائـر وإجـراء التفتيـش الدقيـق ليعـرف الموظـف ورئيسـه والشـعب أن هنـاك يـداً فـوق أيديهـم. وأمـا عـلاج السـبب الثـاني فهـو دفـع الرواتـب

بقـدر الامـكان بانتظـام مـع إجـراء تنسـيق دقيـق بالموظفـين ومعظمهـم مـن بقايـا عهـد (عبـد الحميـد) الكثـير عددهـم مـع قلـة الأشـغال إذ يجـد الإنسـان في غرفـة واحـدة خمسـة أو سـتة موظفـين أحدهـم يشـتغل وهـو البوليـس عـادة والباقـون بـلا عمـل إلا مـا يحولـه لهـم البوليـس. وقـد جمعتنـي الصـدف بسـيدة تركيـة تشـغل مركـز بدائـرة الحكومـة فلفـت نظرهـا لكـثرة الموظفـين فأجابتنـي بمـا يـأتي:

«آدمـه ايسـن بولورلـر ولكـن ايشـه آدم بولمازلـر» أي أنهـم يجـدون للإنسـان عمـلاً ولكنهـم لا يجـدون للعمـل إنسـانا».

إرشادات

كل أجنـي يـأتي إلى الأسـتانة يحـق لـه البقـاء فيهـا مـدة خمسـة عـشر يومـاً بموجـب التأشـير عـلى جـواز سـفره فـإذا مـا أراد خمسـة عـشر يومـاً أخـرى ذهـب إلى شـعبة بوليـس المحلـة الموجـود فيهـا واسـتحصل عـلى ورقـة تدعـى «بياننامـه» بعـد أن يقـدم خمـس صـور فوتوغرافيـة وطابعـة بثلاثـين قرشـاً تركيـاً ثـم يأخـذ هـذه الورقـة مـع جـواز سـفره ويذهـب إلى مكتـب الأجانـب في الشـعبة الرابعـة للبوليـس وهنـا يدفـع خمسـة وعشريـن غرشـاً تركيـاً (أي مـا يقـرب مـن الخمـس وعشريـن مـلا) فيـؤشر عـلى جـوازه وبعـد هـذا التأشـير يمكنـه البقـاء في تركيـا مـدة خمسـة عـشر يومـاً أخـرى عـلى أن يغـادر البـلاد عنـد انتهائهـا إلا إذا أراد إقامـة أطـول وعندئـذ عليـه أن يحصـل عـلى ورقـة تدعـى « «اقامتنامـه»..

رأيـت أن أذكـر هـذه الأمـور خشـية أن يقـع غـيري بمـا وقعـت فيـه حينـما سـئلت عـما إذا كنـت حـضرت للاسـتانة سـابقاً وفيـما إذا كنـت حصلـت

عـلى بياننامـه أو اقامتنامـه فـكان مـن سـوء حظـي أن قلـت اني حصلـت عـلى اقامتنامـه ولم اكـن أعلـم الفـرق بينهـا وبـين البيانامـه فأرسـلت إلى بوليـس المحلـة التـي كنـت أقطنهـا سـابقاً للتفتيـش عـلى القيـود التـي لم يعـثر عليهـا بعـد تفتيـش ثلاثـة أيـام متواليـة أضعتهـا مـن أيـام سـياحتي. وبهـذه المناسـبة أذكـر إني أرسـلت لأحـد أفـراد البوليـس فوقفـت أمامـه مـع قريـب لي مـدة ربـع سـاعة كان يقلـب أثناءهـا صفحـات جـواز سـفري وبعـد ذلـك نطـق بعبـارة «مـن أيـن أنـت؟، باللغـة العربيـة ففكـرت قليـلاً وقـررت أن أقـول مـن القـدس لاعتقـادي أن قليلـين جـداً منهـم مـن يعـرف فلسـطين فكيـف باسـم «صفـد».. فقلـت لـه مـن «القـدس الشريـف» فقـال ولكنـه مكتـوب في جـوازك «نابلـس» فقلـت نعـم مقيـم مؤقتـاً في نابلـس فقـال «صبـارة موجـود بعـده؟» فظننـت لأول وهلـة أنـه يسـأل عـن شـخص يدعـى صبـارة ولـذا فضلـت أن أجيـب بنعـم. ثـم قـال «كان الجبـل كلـه مـزروع صبـاره! مـا هيـك؟» فأدركـت عندئـذ أنـه يقصـد بكلمـة صبـارة النبـات المعـروف بالصـبر. ثـم سـألني عـن الجامـع الكبـير وعـن عائلـة تسـمى بعائلـة النابلـسي. ومـن أغـرب مـا سـألني عنـه أحـد أفـراد البوليـس عـن جـسر كان موجـوداً في نابلـس وعـما إذا كان لا يـزال قائمـاً فرأيـت مـن الحكمـة أن أجيـب بنعـم مـع إني لـلآن وأنـا في مدينـة نابلـس أبحـث عنـه ولا أتوصـل إلى موقعـه!!! وفي إحـدى الدوائـر سـألني أحـد الموظفـين عـن رواتـب الموظفـين في فلسـطين وعـن الحيـاة فيهـا ومـا شـاكل ذلـك مـما دل عـلى أنـه خريـج إحـدى المـدارس فـأراد زميـل لـه أن يريـه أنـه يعـرف نابلـس فقـال «أتذكـر أننـا كنـا نسـافر بـين نابلـس وبيسـان ونمـر بطريقنـا عـلى بلـدة جميلـة تدعـى بيـت جـالا» فقلـت لـه نعـم ولا تـزال هـذه

البلـدة قائمـة في مكانهـا هنـاك يـا سـيدي!!! ويمكننـي أن أقـول أن في المائـة خمسـة وعشريـن مـن سـكان الاسـتانه يعرفـون العربيـة.

الصحافة

كنـت كل يـوم أطالـع جريـدة (اقشـام) أي المسـاء التركيـة وفي أحـد أعدادهـا وأظنـه العـدد ٤٦٣٦ اطلعـت عـلى نبـأ غريـب وهـذا نصـه بالحـرف الواحـد: (لقـد تقـرر نهائيـاً أن يـترك الملـك عـلي (كـذا) عرشـه في شرقـي الأردن ليتبـوأ عـرش سـوريا). وقلـما تهتـم الصحـف التركيـة بأمـر بلادنـا ولا يفكـر الأتـراك بالعـرب قـط وقـد صرح الغـازي في إحـدى مواقفـه قائـلاً (أحـب العـرب وأتمنـى لهـم السـعادة ولكنـي لا أنـسى الدمشـقيين) أمـا سـبب عـدم نسـيانه الدمشـقيين فهـو لمـا ارتكبـه بعضهـم مـن الفظاعـة بقتـل فلـول الجيـش العثـماني وفي الأسـتانة عـدة صحـف يوميـة وأسـبوعية وأهمهـا (صـوك بوسـته) أي (آخـر بوسـته) وكلهـا تطبـع بالحـروف اللاتينيـة التـي لهـا منافعهـا كـما سـترى.

الحروف الجديدة

تطبـع الصحـف والكتـب بالحـروف الجديـدة التـي لهـا منافعهـا لوجـود فـرق عظيـم بـين الكتابـة واللفـظ في السـابق. خـذ مثـلاً كلمـة «اولـدي، التركيـة تجـد أن لهـا ثلاثـة معـانٍ تختلـف حسـب اللفـظ مـع أن الكتابـة واحـدة فتـارة تعنـي «تـوفي» وطـوراً «صـار» وأخـرى «كان الأول» فـالأولى

أصبحت تكتب (oldi) والثانية (oldu) والثالثة (eveldi) ومن أمثلة الكتابة الجديدة العبارة الآتية:

(Saglam Akil saglam Vâcutta bulunur)

وتعني «العقل السليم في الجسم السليم». وقد كانت هذه العبارة في الأصل تكتب كما يأتي «صاغلام عقل صاغلام وجوده بولو نور».

وقد أصبح جميع الأتراك رجالا ونساء يقرأون ويكتبون بعد إدخال الحروف اللاتينية وإلزام جميع طبقات الشعب الذين لا يزيد سنهم على الخامسة والأربعين على تعلمها، غير أنهم لا يستطيعون الكتابة والقراءة بالسرعة التي كانوا عليها حينما كانت الحروف العربية سائدة حتى أن بعض الموظفين الذين لم تعتد عيونهم قراءة الحروف اللاتينية، وأعني بذلك الذين لم يتعلموا فيما مضى إحدى اللغات الاجنبية كالإنجليزية والفرنسية، إذا كتبوا تحريراً مثلاً عن أمر من الأمور ثم أعيد إليهم ذلك التحرير بعد يوم أو يومين فإنه يتعذر عليهم قراءة ما كتبوا بسهولة.

وأما النشئ الحديث فيقرأ ويكتب بكل سهولة ولا أبالغ إذا قلت أن التلميذ يفوق أستاذه إجادة في القراءة والكتابة والإملاء. وقد قال الغازي نفسه إني لم أوجد هذه الحروف الجديدة للجيل الحاضر بل للجيل الآتي ولعل الغازي تنبأ عما سيحدث من الارتباك وقد حدث.

وأما ما قالته جريدة فلسطين الغراء في أحد أعدادها من أن الاتراك بعد ادخال الحروف اللاتينية أخذوا يدخلون من الاصطلاحات الأجنبية في لغتهم ما لا ينطبق على قواعد اللغة فهذا مغلوط لأن الأتراك كانوا

يستعملون ذلك قبل ادخال الحروف اللاتينية بزمان. ولكن ما ألوم به الطبقة العليا من الشبان والشابات هو استعمالهم اللغة الفرنسية في مجتمعاتهم ففي كل اجتماع ترى أنهم يفضلون التكلم بها على التركية ويفخرون بذلك وقد منعت الحكومة التركية أطفالها من الدخول في المدارس الأجنبية الابتدائية خوف تعلمهم اللغة الأجنبية قبل التركية.

الشعب

من المؤلم الممض ومن الموجب لخزن العميق أن يكون في تركيا كما في غيرها من البلاد الشرقية صنف من الناس غشيت أبصارهم الأحقاد ومطامع الشهوات وأعمت قلوبهم الغايات النفسانية فأصبحوا معاول للتدمير بدلاً من أن يكونوا أدوات فعالة وخرجوا على الطبقة المخلصة من رجالاتهم يكيدون لأمتهم قصد الوصول إلى غاياتهم الخبيثة ولو عن طريق هدم كيانها حسب المثل «في وفي عداك يا ربي». لا غرابة أذا رأينا في كل أمة مثل هذه الطبقة طالما أن النفس أمارة بالسوء ولكن بالرغم من وجود هذه الطبقة الضئيلة فإن الشعب التركي يتعلق بالغازي تعلق الروح بالجسد ويقدر جهوده ويقدسه ويجله ويفديه بالنفس والنفيس إذ لا مشاحة في أن مصطفى كمال هو رجل تركيا الأوحد ولم يقم فيها كلها رجل أعظم منه وما قام به من الأعمال يؤيد ما أقول. ومما يؤلمني أيضاً ويؤسفني جد الأسف أن أرى في هذه البلاد أفراد طمس الله على قلوبهم فأخذوا ينسبون للغازي من التهم ما هو منها براء وإنني أنصح لهؤلاء أن يفكروا في بلادهم ويسعوا لخلاصها من براثن الجهل ويبذلوا الجهد لإنقاذها من هوة الأخلاق

السـحيقة بـدلاً مـن إضاعـة الوقـت في انتقـاد رجـال عملـوا فأخلصـوا وعاملـوا فلـم يظلمـوا وحدثـوا فلـم يكذبـوا ووعـدوا فلـم يخلفـوا.

الغـازي ديمقراطـي في مأكلـه ومشربـه وملبسـه يـروح ويغـدو في الأسـتانة بـدون أبهـة الملـوك وعظمـة السـلاطين. كنـت في إحـدى الأيـام برفقـة الاخـوان الذيـن ذكرتهـم سـابقاً في مـكان يدعـى «بيـوك اطـه» أي الجزيـرة الكبـيرة وهـي أكـبر جزيـرة مـن الجزائـر المعروفـة بجزائـر الأمـراء فيهـا مـن الأبنيـة الشـاهقة والحدائـق الغنـاء والأشـجار الباسـقة مـا جعلهـا منتزهـاً عموميـة وقـد عنـت بهـا البلديـة عنايـة تامـة حتـى أنهـا منعـت اسـتعمال السـيارات فيهـا للركـوب بـدلاً مـن العربـات خـوف إثـارة الغبـار.

قلـت إننـي كنـت في بيـوك أطـه مسـاء أحـد الأيـام عائـداً إلى الأسـتانة وإذا بتصفيـق حـاد يصـم الآذان عـلى الرصيـف وكان يبعـد عنـي مقـدار عشريـن مـتراً فالتفتنـا وإذا بالغـازي حمـل قبعتـه بيسـارة بينـما يحيـى الجماهـير التـي تراكضـت عنـد سـماع التصفيـق بيمينـه ويلبـس سروالاً (بنطلونـاً) أبيـض وجاكيـت كحليـة اللـون، وقميصـة أبيـض مقلوبـاً ياقتـه فـوق جاكيتـه فصفقنـا مـع المصفقـين وهتفنـا لـه مـع الهاتفـين لبطولتـه وأعمالـه ولأنـه رجـل الـشرق الأوحـد رغـم مـا عاملتنـي بـه الحكومـة التركيـة مـن شـدة ورغـم مـا قاسـيته مـن أتعـاب وذقتـه مـن مـرارة لاعتقـادي أن البطولـة مقدسـة حتـى في أعدائنـا. ومـن ثـم وبعـد أن سـار مسـافة تقـرب مـن الأربعـين مـتراً ركـب عربـة بسـيطة أقلتـه إلى النـزل المقيـم فيـه.

مستقبل تركيا

جديـر بنـا أن نلقـي نظـرة إلى مسـتقبل تركيـا سياسـياً واقتصاديـاً وعلميـاً وأخلاقيـاً بغيـة رفـع النقـاب عـن أسراره وخفايـاه. نعـم إن دون معرفـة ذلـك حجبـاً مـن أسـتار غيـب اللـه إلا أنـه مـا ارتسـم في مخيلتـي وثبـت في ذهنـي مـن الصـور التـي قـد تكـون مقنعـة أرى وأنـا أمـد لحظـي وأحـاول أن استشـف هـذا الغيـب البعيـد أن لتركيـا مـن الوجهـة السياسـية مسـتقبلاً باهـراً تتبـوأ فيـه ذروة العظمـة والمجـد لأن الحـق مـع القـوة. ثـم ننظـر إلى مسـتقبل تركيـا اقتصاديـاً وعلميـاً فنتنبـأ لهـا بمسـتقبل حسـن لأن تركيـا تسـير في هذيـن الأمريـن إلى الأمـام متثاقلـة وببطـئ لسـببين الأول ضعـف ماليتهـا وقلـة إنتاجهـا والثـاني إدخـال الحـروف اللاتينيـة كـما ذكـرت سـابقاً.

وأمـا مـن الوجهـة الأخلاقيـة وهـي نفسـها الاجتماعيـة فـإني أنظـر إلى مسـتقبل تركيـا بمنظـار أسـود لأن سـفور نسـائها قـد أصبـح تجـرداً بـل تعريـاً وقـد انتابـت المـرأة التركيـة عواطـف خلقيـة غـير مألوفـة لهـا رد فعـل محتـوم إذ ليـس لتيـار التلـذذ والاسـتمتاع عندهـا حـد ولا أظـن مـا فعلتـه تركيـا مـن هـذه الوجهـة غـير تجربـة اجتماعيـة ظهـر خطلهـا وغـدت نتيجتهـا ماثلـة للعيـان مـما أوجـب التخـوف والنـدم سـاعة لا منـدم كـما وأن للتراجـع بعـد تلـك الطفـرة نتائـج وخيمـة أسـوأ مـن نتيجـة الغـراب الـذي قلـد الطـاووس.

ختام الرحلة

وفي اليـوم الثالـث والعشريـن مـن شـهر أيلـول عـام ١٩٣١ غادرنـا الأسـتانة إلى الوطـن العزيـز فوصلنـاه في اليـوم التاسـع والعشريـن مـن الشـهر نفسـه بعـد أن ذقنـا الأمريـن مـن هجـمات الخضـم وتلاطـم أمواجـه رغـم ضخامـة الباخـرة.

أبيات الشيخ البسطامي

لله باخرة ما أن جرتْ ورسـتْ إلا وبالله مجراها ومرسـاها

حـوت نفائـس أفـكارٍ منسّـقةٍ يـزري بعقدِ جُمانٍ نظمُ مبناها

ويُنعـشُ الـروحَ مـا تحويه من مُلَح بالعقـل يفعل فعلَ الراح معناها

قصّـت علينـا مـن الأنبـاء ألطفها ومن حوادث تركيًّا قصاراها

ومن مَشـاهدِها ما قد حوى عَجبا وأدهش العقلَ حسـنا عند مرآها

أعظِـمْ بمنشـئها أعظِـمْ بناظِمهـا كعقدِ در بجيدِ الغيد حلّاها

أعظم بناسـجها أعظم بمُبدعها كغادةٍ تسـحر الألباب عيناها

لا زلـت بحـرا صلاحَ الدين فيه جرت بواخـرُ الفكر تبغي أوج علياها

أحمد البسطامي

كيف أحبني الشيخ؟!

قصة وقعت بين فتاة انجليزية واسمها آيرين سبيلر وبين الأمير فواز الشعلان وقد قصتها الفتاة نفسها في إحدى المجلات الانجليزية وقد عرّبت بتصرف.

بعد تجوالنا في ايطاليا وفلسطين وصلنا دمشق تلك المدينة الشرقية المتاخمة للصحراء السورية وفيها تبتدئ قصتي مع الشيخ وأعني به الأمير فواز الشعلان الفتى المثري الأنيق صاحب الصرح الفخم في دمشق والمخيم في الصحراء....

ولأول مرة شاهدناه في المرسح حيث كنا نمثل دورة لم يحول به الشيخ بصره عنا استحساناً بل حيث ألقى على أقدامنا زهرتين من الورد الواحدة لي والثانية لزميلتي ويني... فاتضح لنا حينئذ أننا سحرناه وخلبنا لبه. ولما قدّمنا إليه أحد الأصدقاء طلب إلينا أن نجلس إليه وحدثنا في شرفة الملعب فقبلنا ولم يخالج قلبينا شيء من الخوف ولم نعلم بما كان يخبئه لنا المستقبل....

خرجنا إليه فجاءنا شيخ طويل القامة قوي البنية يتهادى بمشيته وعيناه السوداوان تنظران إلينا مفعمتين بالفرح والسرور قائلاً «لقد تشرفت بلقياكما وسررت جداً لتنازلكما إذ خشيت أن يخالجكما ريب يوجب رفضكما طلبي» فابتسمت ويني قائلة نحن انجليزيتان ولذا لا يجد الخوف لقلبينا سبيلاً، فانحنى مبتسماً وقال «مرحبا لك يا ريحانة!» ثم التفت إلي قائلاً: وأنت؟ فأجبته كلا! لست وجلة غير أني أرغب

في معرفة سبب ميلك للاجتماع بنا وحدنا. فقال رأيتكما عدة مرات وأما الآن وقد أوليتماني شرف الاجتماع بكما اقتنص الفرصة لأدعوكما لزيارتي في قصر لي خارج البلدة وإني أضع سيارتي تحت تصرفكما المطلق لتمتطياها أنّى شئتما وكيفا أردتما وإنني لا أشك قط في أنكما تحبان مناظر الزهور المختلفة الألوان والأصناف وخاصة الورود النابتة على ضفتي النهر فإذا ما تفضلتما بزيارتي نقشتما في جدار قلبي أثراً لا تمحوه الدهور. فتنهدت عميقاً حينذاك ودهشت لأقواله هذه إلا أنني كنت أظهر عدم القبول. ولعل الشيخ أدرك ما أقصده ولذا قال سيكون أحد ضيوفنا الطبيب الانجليزي في الوقت الذي تشرفاني به. فقبلنا دعوته ووعدناه بالزيارة في اليوم التالي فابتسم لهذا النبأ وبدت ملامح السرور على وجهه وانحنى قائلاً بلطف سأضع سيارتي تحت إمرتكم في أي وقت تحتاجانها ولأي مكان تريدانها فعينا له مكاناً ثم ودعناه وانصرفنا لمنزلنا. ولما دخلنا مضاجعنا قالت لي رفيقتي وينيي: هل أنت واثقة يا ايرين أنك لم تقعي في شراك هذا الشيخ؟ فابتسمت ابتسامة الهزء والسخرية لسؤال لم أكن أتوقعه وقلت لها لا تكوني حمقاء يا عزيزتي فقالت ولكني استنتجت ذلك من نظراته التي لم يحولها عنك ومن الزهرة التي قدمها لك واحتفظت بها حتى الآن! فقلت حينئذ أنها لذكرى والاحتفاظ بزهرة من الورد قدمها شيخ لفتاة لا تعني الوقوع في شراكه، وعدا هذا لدي تذكارات كثيرة من لندن وثقي أنني لن أتصور أنني أعشق شخص يقطن صحراء سوريا، وأما افتتانه بي فلم يكن إلا لأني فتاة من الجنس الأبيض وكما تعلمين قلما تؤم مدينة دمشق فتاة من هذا الجنس.

ظللت طوال تلك الليلة أتقلب على فراشي غارقة في بحر من الأفكار تتقاذفني المخاوف وقد قضيت سحابة الليل ولما يغمض لي جفن مفكرة بما ستظهره الأيام فيما إذا كان الشيخ حقيقة يحبني....

في اليوم الثاني وفي الوقت المضروب ذهبنا للمحل المعين ووجدنا هناك سيارة ضخمة جميلة بانتظارنا وسائقها أنطوان بالقرب منها ينتظر إشارة منا فانحنى أمامنا إلا أنه لم يرمقني بنظراته كما فعل سيده بل وقع نظره على صديقتي وينـي.

سارت بنا السيارة مخترقة الأحياء العربية والمقاهي الوطنية حيث يجلس رجال يلبسون القنابيز البيضاء والعبي السميكة بل حيث يتصاعد دخان لفافاتهم في الهواء وما هي إلا دقائق حتى وصلنا

قصر الأمير الذي كنا نظنه مشيداً من الاجر كبيوت باقي الأهالي ولكنه ظهر لنا أنه بناء ضخم تحيط به جدران كثيفة وأشجار باسقة وفرسان مدججة بالسلاح. ففتح الباب ودخلت السيارة ساحة القصر فخرج لاستقبالنا الأمير الذي ساعدني على النزول من السيارة وبرفقته الطبيب الانجليزي الذي اعتنى برفيقتي وينـي والحق يقال أن كل ما كان في القصر من ورود مفتحة وأزهار يعطر عبيقها النسيم ونباتات متسلقة على الجدران وفواكه قطوفها دانية وفوارات ماء جميلة كلها كانت تسر الناظرين وكان يسرني في القصر منظر السراري ذوات البشرة السوداء.... تناولي الأمير من يدي ووضع أصابعي في ثنية مرفقه وجذبني نحوه إلى ناحية من القصر ليست بعيدة عن وينـي والطبيب وهناك نسيت لندن العظيمة، نسيت أنني فتاة ذات عمل أتعيش منه

وظننـت أننـي خلقـت لأكـون في هـذا القـصر الفخـم فالتفـت إليـه ولكـن مـا كاد يلتقـي بصرانـا حتـى علـت وجنتـي حمـرة الخجـل فابتسـم عندئـذ وقبـض عـلى يـدي ناظـراً إلي نظرتـه السـاحرة قائـلاً أنـت يـا مـلاكي لألطـف فتـاة وأجمـل زهـرة في دمشـق...

بعـد ذلـك أخـذني لأجمـل غـرف قـصره المزدانـة بأنفـس الريـاش الشرقـي الـذي يبهـر الأنظـار ومـا كدنـا نجلـس عـلى الوسـائد الحريريـة المعـدة للجلـوس حتـى صفـق الشـيخ وإذا بعبديـن سـوداوين أحدهـما يحمـل القهـوة والآخـر يحمـل شراباً أكـد لنـا الطبيـب أنـه أفخـر أنواعـه مـع أقراص مـن الحلـوى العربيـة التـي لم أذق ألـذ طعـماً منهـا. وبعـد أن تناولنـا ذلـك خرجنـا نمـشي الهوينـا نحـو الجنينـة حيـث أخـذ الشـيخ يـشرح لي أصنـاف الثـمار وأنـواع الزهـور وفصائـل النبـات إلى أن توارينـا عـن الأنظـار وهنـاك أخـذ الشـيخ يـدي وقبّلهـا قائـلاً: أهـل يغضبـك هـذا يـا وردة دمشـق؟ فسـحبت يـدي مـن يـده قائلـة نعـم يغضبنـي وأرجـو أن لا تعـود إليـه مـرة أخـرى. فابتسـم قائـلاً إرادتـك مـن إرادة الخالـق يـا وردة الجنينـة. عندئـذ أقبلـت علينـا وينـي برفقـة الطبيـب قائلـة أظـن يـا ايريـن قـد أزفـت سـاعة الذهـاب ولـذا هلمـي بنـا قبـل سـقوط الليـل. فـسررت مـن هـذه المقاطعـة ووافقـت عـلى العـودة مـن زيـارة جميلـة كلهـا أهـوال لا أنسـاها. صفـق الشـيخ عندئـذ حـضر أحـد الخـدم ومـره بإعـداد السـيارة ومـا هـي إلا ثـوان معـدودة حتـى كنـا داخلهـا والأمـير بجانبنـا يكلفنـا الحضـور مـرة أخـرى فأجبتـه بالقبـول متأثـرة بلطفـه ودماثـة أخلاقـه. لقـد زرنـا الشـيخ مـرات عديـدة في قـصره وفي كل مـرة كان يظهـر لنـا مـن اللطـف والعطـف مـا لم يظهـره في المـرة السـابقة ولـولا التطويـل لذكـرت للقـارئ تفاصيـل

تلـك الزيـارات ولكنـي أكتفـي أن أقـول أن الشـيخ قـد وقـع فعـلاً في شراكي وبلغـت درجـة الحـب منـه آخرهـا وقـد اعـترف بذلـك مـرة حينـما ضمنـي إلى صـدره قائـلاً «أحبـك! أحبـك! يجـب أن تقبلينـي زوجـاً لـك! وإني أقسـم لـك بقبضـة خنجـري هـذا أننـي سـأجعلك ملكـة هـذا القـصر بـل ملكتـي أنـا، وعبيـدي يصبحـون عبيـداً لـك وكل مـا تأمريـن بـه يصـل لأعتابـك بالحـال، فأجبتـه عـلى رسـلك يـا أمـير! إن مـا تقـول خيـال لا يمكـن تحقيقـه لأني غربيـة وأنـت شرقـي. فأجابنـي وهـل هـذا يحـول بيننـا؟ لقـد صرحـت مـراراً أن ليـس للحـب حـد فأنـا أحبـك وأقسـم باللـه أنـك تحبينـي أيضـاً وضمنـي ثانيـة إلى صـدره قائـلاً: هـل تحبينني؟ باللـه أجيبـي! فـما كان منـي إلا أن أومـأت بالإيجـاب. وعندهـا ابتسـم الشـيخ ابتسـامة الظافـر وقبلنـي قائـلاً لقـد عرفـت هـذا وتأكدتـه مـن أول ليلـة اجتمعنـا بهـا ولا شـك أن الخالـق قـد بعثـك بوحيـه وهدايتـه إلي. فأفلـت منـه ثانيـة قائلـة كلا! كلا! لا يمكـن أن يكـون ذلـك إذ أنـا انجليزيـة! انجليزيـة! نعـم لا يمكـن أبـداً. فأطـرق هنيهـة اغرورقـت خلالهـا الدمـوع في عينيـه ثـم قـال «حكـم الإلـه لا مـرد لـه! ولكـن مـا العمـل وقـد تأصـل هـذا الهـوى العـذري في قلبينـا؟ كـوني رقيقـة القلـب! ارحمـي قلبينـا! ولبـي طـلي دون تـردد أو جـزع وتنـازلي لزيـارتي ليلـة واحـدة في الصحـراء نعـم ليلـة واحـدة تذكرينهـا طـول أيـام حياتـك لأنهـا سـتكون الليلـة التـي نفـترق بعدهـا أبـداً. عدينـي الآن بهـذه الزيـارة! فوعدتـه دون تـردد ولكنـي اشـترطت عليـه دعـوة رئيـس فرقتنـا لهـا أيضـاً فأذعـن ووعـد أن يفعـل ذلـك وطبعـاً وينـي سـتكون معنـا.

في الوقـت المـضروب امتطينـا سـيارة ذهبـت بنـا إلى حيـث كان الشـيخ ينتظرنـا برجالـه وكلهـم فرسـان مدججـون بالأسـلحة ومعهـم بعـض خيـول

جاهـزة عرفنـا أنهـا هيـأت لنـا وأمـام الجميـع كان الشـيخ الـذي أحببتـه ولكـن لا لأكـون زوجـة لـه! فامتطينـا خيولنـا وسرنـا ننهـب الرمـال حتـى وصلنـا مدينـة الوبـر قـرب واحـة حولهـا أشـجار البلـح الباسـقة ورؤوسـها تناطـح الجـو القرمـزي وعندئـذ قفـز الشـيخ مـن عـلى جـواده ودنـا منـي قائـلاً هلمـي إلي يـا مليكـة فـؤادي ثـم قبضنـي مـن ذراعـي وحملنـي كمـن يحمـل ريشـة طائـر وترجـل معنـا الجميـع.

مـضرب الشـيخ في هـذه الصحـراء جميـل كقـصره في دمشـق وفيـه مـن الخـدم والحشـم مـا في الأول ومـن الريـاش مـا يحتاجـه قـصر مـن الوبـر فتناولنـا طعامـاً فاخـراً وبعـد ذلـك ارتشـفنا الخمـرة فالقهـوة ودخنّـا لفائـف التبـغ. أمـا معاملـة الشـيخ لنـا فكانـت حسـنة جـداً مـما جعـل رئيـس فرقتنـا يـسر سروراً عظيـماً وخاصـة ليمتـع نظـره في الصحـراء الشاسـعة المترامیـة الأطـراف وقـد دفعـه حـب الاطـلاع أن يطـوف عـلى الخيـام برفقـة الطبيـب ليقـف عـلى شـكل معيشـة القـوم هنـاك وهكـذا كان وأمـا أنـا ووينـي فقـد بقينـا في مـضرب الشـيخ الـذي لم يفارقنـا والـذي مـا كاد يذهـب المذكـورون حتـى أسرع إلي مقبـلاً يـدي قائـلاً: إليـك يـا حبيبـة القلـب والفـؤاد شرحـت حيـاة الخيـام في هـذه الربـوع وبينـت لـك مـا فيهـا مـن جـمال يمـلأ قلـب العاشـقين وحريـة ترفـرف فـوق الحبيبـين لا يعكـر صفـاء عيشـهما متدخـل ولا يشـوب حياتهـما متطفـل.

ولكـن مـا كاد يتـم قولـه حتـى أجابتـه صديقتـي وينـي قائلـة «إن هـذا لا يمكـن يـا صاحـب السـعادة لأن ايريـن صديقتـي لـن تفارقنـي ولا بـد أن تعـود معـي وثـق أنهـا لـن تمكـث هنـا معـك في هـذه الصحـراء ولا

بحـال مـن الأحـوال.. إن مـا قالتـه وينـي هـو الحقيقـة ولكـن مـا العمـل وقـد كلفـت بمناظـر الصحـراء وعلقـت بجـمال الأمـير فـواز. وعندئـذ انسـلت وينـي مـن خيمتنـا تفتـش عـلى الطبيـب ورئيـس فرقتنـا وأمـا أنـا فأجبـت الشـيخ قائلـة: مسـتحيل! لا يمكننـي أن أتزوجـك قـط! فأجابنـي ولكنـك تحبينـي يـا عزيـزتي كـما اعترفـت سـابقاً في جنينـة القـصر في دمشـق ولـذا فـإني أقسـم باللـه أننـي لـن اسـمح لـك بمغـادرة هـذه الديـار بعـد ذلـك الاعـتراف فأجبتـه أنـا لا أحبـك وإذا كنـت قلـت أننـي أحبـك فأكـون قلتـه إمـا عـن حمـق أو عـن طريـق المجاملـة. فأجـاب لا بـل تحبينـي والقلـب عـلى القلـب دليـل وإن اللـه لم يرسـلك مـن بـلاد بردهـا قـارص إلى صحـراء كهـذه إلا لتكـوني زوجتـي. فأرعبنـي قولـه هـذا وازداد خفقان قلبـي حتى كاد يغمـى عـلي ولكنـي تشـجعت وحاولـت أن أفلـت منـه قائلـة: أنـت في ضـلال يـا هـذا! أنـا غربيـة وأنـت شرقـي... عندئـذ جـاء الطبيـب ورئيـس فرقتنـا ولـولا حضورهـما مـا نجـوت مـن براثـن الشـيخ! فانحنـى الرئيـس اجـلالاً قائـلاً لقـد دنـا الوقـت يـا صاحـب السـعادة لنعـود إلى دمشـق فاسـمح لنـا. فأطـرق الأمـير برهـة حسـبتها سـاعات ثـم رفـع بـصره وأمـر خدمـه بإحضـار الخيـول حـضرت أمـام الفسـطاط في الحـال واعتلينـا عـلى ظهورهـا وأنـا مصدقـة بـصري تـارة ومكذبتـه أخـرى إذ ضـاع رشـدي وضـل صـوابي مـما عانـاه دماغـي مـن النصـب حتـى غـدوت كريشـة طائـرة في مهـب الأريـاح تقصينـي الجنـوب وتدنينـي الشـمال وظللـت عـلى هـذه الحالـة حتـى دنـت سـاعة الافـتراق فانحنـى الشـيخ قائـلاً «إلى اللقـاء يـا عزيـزتي!، ولكـن أتـدري أيهـا القـارئ مـاذا كان جـوابي؟ أجبتـه: بـل اسـتودعك اللـه! ولا يخفـى مـا بـين هاتـين العبارتـين مـن فـروق ومعـانٍ ظاهـرة!

لم يبق من برامجنا إلا الذهاب إلى مدينة زحلة. ففي اليوم الثاني شددنا الرحال وسار بنا الركب ميماً نحو تلك المدينة البعيدة عن دمشق مسافة ثلاث ساعات بالسيارة تلك المدينة المأهولة بقبائل العرب والبدو الذين دهشوا لمرآنا إذ قلما يؤم هذه المدينة أناس غربيون مثلنا. فوصلنا بعد ظهر اليوم الذي غادرنا به دمشق فشعرت حينذاك بشيء من الطمأنينة وهدوء الخاطر وتلاشى جزء كبير من الجزع الذي كانت ترتعد منه فرائصي.. وكل ذلك من الشيخ الذي أقسم أن لا يسمح لي بمفارقة دياره....

يومان مرا علي وأنا أفكر بالشيخ حتى نحل جسمي وشحب لوني ولكن!! في اليوم الثالث اليوم المشؤوم وقع ما كنت أخشاه! لقد قدم الشيخ زحلة أيضاً! أمّها وحوله ثلة من نخبة رجاله الأقوياء. رأيته في أحد شوارعها ولحظت تلك الابتسامة الساحرة التي لم تفارق ثغره الجميل. فاقتربت مني وبني بالحال وقبضت ذراعي وقالت هلمي ننجو منه. ولكن! ما العمل؟ نفدت قواي ولم تعد قدماي تقوى على السير... وصل الشيخ وانحنى قائلاً بلطف:

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا. ايه يا قرة عيني وريحانة نفسي! لقد غدا القصر بعدكما خاوياً تنعق به البوم ويسكب لمرآه الدمع كل راءٍ!. فأجابته وبني ساخرة وسيبقى كذلك إلى

ما شاء الله لأننا قد برحنا دمشق ولن نعود إليها. فاغرورقت عينا الشيخ بالدموع والتفت إلي قائلاً:

فأنت التي إن شئت أشقيت عيشتي

وأنت التي إن شئت أنعمت باليا

ثم أجهش بالبكاء والعويل وأما نحن فأسرعنا إلى نزلنا وعرجنا إلى غرفة رئيسنا نستأذنه العودة لبلادنا ولكنه ويا للأسف قد رفض وعبثاً حاولنا اقناعه. وبينما نحن كذلك إذ بالشيخ يدفع الباب سائلاً عن سبب الجدال العنيف مقدماً مساعدته لحله فقلت له نطلب أمراً جللاً وقعه عليك أشد من ضرب الحسام ولن تمد يد المساعدة إلينا إذا ما عرفته. إنا نود الذهاب إلى المعتمد الانجليزي في دمشق لنعود لبلادنا فأجاب مبتسماً أنا مستعد لأداء هذه الخدمة... فقلت وقد اعترتني الدهشة «أنت ؟!» فأجاب نعم إلا تعتمدين عليّ؟ ألا تثقين في؟ أقسم لك بقبضة خنجري أنني لن أمسك بسوء بل أوصلك ورفيقتك آمنة سالمة لدار المعتمد. فأجابته وينبي إننا نثق بك ونعتمد على أمانتك. فخرج رئيس الفرقة عندئذ واتفقنا مع الشيخ على وقت للسفر.

وعندما خيم الظلام انسللنا من النزل دون أن يرانا أحد ووجدنا سيارة الشيخ بانتظارنا وسائقها أنطوان بجانبها فدخلناها وسارت بنا ولكن يا لهول ما انتابنا من اضطراب في الفكر إذ أخذت الأفكار تتوارد وكلها مزعجة حول سفرنا الرهيب في ذاك الليل الدامس. يا الله ! أقسم الأمير سابقاً أن لا يدعنا نغادر دياره واليوم يقسم أن يوصلنا دار المعتمد! بأي القسمين يبر؟ اواه من سوء الطالع! إن العربي يفضل الموت على أن

ينكث بيمينه! ولكن ما هي إلا مدة حتى وقفت السيارة أمام دار المعتمد وهناك ترجل الشيخ وقال ها قد وفيت بوعدي وأوصلتكما لدار المعتمد إلا أنه بقي على عهد آخر لا بد وأن أقوم به! فأدركت حالاً أي وعد يقصد!! ولكن عجباً هل يجرؤ على أخذنا عنوة من دار المعتمد لصحرائه أو ماذا يعمل؟؟.

دخلنا على المعتمد وطلبنا منه مساعدتنا للسفر فأخبرنا أن باخرة تدعى بلبيس ستبحر من بيروت وطلب إلينا أن نكون على استعداد في الصباح. فاطمأنت نفوسنا وذهبنا تواً لنزل رويال بدمشق لقضاء ليلتنا وهناك بعد تناول الطعام صعدت وينى لغرفة النوم وبقيت أنا في غرفة الاستقبال أقلب صفحات ماضي حياتي وحاضرها ومستقبلها. وبينما أنا كذلك إذ بصوت وقع أقدام في الغرفة ظننتها أقدام وينى ولكن! ولكن يا للدهشة رأيت الأمير بنفسه باسط يديه قائلاً إلي يا معبودتي! إلي. إنني أستطيع أخذك بالجبر والشدة ولكن هلمي إلي عن طيبة خاطر. وحبي إليك طاهر نقي. لم أحضر لأخذك قهراً وقسراً بل لأستعطفك وأتوسل إليك. إنني أفدي في سبيلك كل مرتخص وغال يا ملاكي! والآن وبعدما سمعت هل أزمعت البقاء؟ فأجبته لا بل أنا ذاهبة لبلادي فاحتدم الشيخ غيظاً وقال بل تبقين وأنا أقسم أن تبقي لأني أحبك كما أنك تحبينني وفي الغد ستحضر سيارتي إلى باب النزل لتقلك مع رفيقتك إلي. فنهضت من مقعدي وتركت الغرفة قائلة «بل أكون ووينى بالباخرة التي ستقلع من بيروت» ثم صعدت إلى رفيقي وقصصت عليها ما حدث.

في اليوم الثاني يوم الأهوال أبكر انطوان بمجيئه وتقدم إلينا بما كلفه به سيده فرفضنا وبينما نحن نحاوله إذ بالسيارة التي استأجرناها لبيروت قد حضرت فامتطيناها وعاد أنطوان بخفي حنين. سارت بنا السيارة تنهب الطريق نهباً وما هي إلا دقائق حتى قبضت وينى على ذراعي وقالت أنظري إلى تلك الأشباح المنتشرة على قمم الجبال وجانبي الطريق فنظرنا وتطلع السائق الذي أدرك الخطر المحدق وعاد دون تريث لدار المعتمد وهناك ظللنا حتى أرخى الليل سدوله ولبست دمشق ثوباً فاحماً وخرجنا تحرسنا ثلة من الضباط الفرنسيين وجنودهم ولكن رغم هذا وذاك لم نسلم من اطلاق الرصاص علينا ولا شك أنه من رصاص الأمير...

وصلنا الساحل بأمان ودخلنا الباخرة وقبل أن نقلع جاءني مراسل إحدى الصحف وطلب مقابلتي ففعلت وبعد حديث قصير حررت له الرسالة الآتية ليوصلها للأمير الشعلان:

يا أميري!

حينما يقع بصرك على رسالتي هذه أكون مضطجعة على فراشي باكية لتركي إياك لأني لم أكن لأريد هذا التباعد... الآن فقط أدركت أنك اهتممت بأمري كل الاهتمام ولكني لم أقابلك بالمثل. لقد كنت عظيماً بنظري وستبقى كذلك. أما قلبي الحزين فحدث عن نيرانه ما شئت ولكنه لن يبل من مرض أصيب به من أجلك.

(ايرين)

كتبـت ذلـك وهـو الحقيقـة عينهـا وكنـت أريـد أن تطـول رسـالتي ولكـن الوقـت لم يسـاعدني.

وصلنـا بـور سـعيد وهنـاك انتقلنـا إلى باخـرة أخـرى. وكـم كنـت اتمنـى أن أرى الشـيخ بهـذه المدينـة لأعـود معـه... ولكـن سـارت السـفينة باسـم اللـه مجراهـا. وقـد علمـت أخـيراً أن الأمـير حـضر إلى بـور سـعيد بعـد اقـلاع الباخـرة بدقائـق..

وصلنـا بلادنـا المحبوبـة وبهـا أدركـت صحـة القـول «الـشرق شرق والغـرب غـرب ولـن يلتقيـا» أمـا الشـيخ فظـل يـردد قـول الشـاعر:

ذهب الذين أحبهم وبقيت مثل السـيف فرداً

الباخرة قصيدة لمحمد البسـطامي

مـا البابليـة يصفـو مزاجهـا للندامـى

ما وجنة تحت خالٍ والثغر يبدي ابتسـاما

ما المسـك أذفر يشـفي من العليل سـقاما

يوماً بأطيب من قو لِ ذي نهىً يتسـامى

هو الأديب (صلاح الدين) الذي لا يسـامى

باللب يلعب مأسـو راً طيّعاً مسـتهاما

خمـر حـلال وعهـدي بالخمـر كانت حراما

.....

قل يا (صلاح) وحدث فأنت أسـمى كلاما

مـاذا (بباخـرة) كنـت ضيفهـا أيامـا؟

تخوض شـوقا إلى (البسـفور) البحار العظاما

قل لي أباخرة البحر تلك أسـمى مقاما؟

أم تلـك باخـرة العقـل حـين تمحـو الظلاما

هذا مجالك فأهنا وهاك مني سـلاما

محمد البسطامي

مكائد الحب الشرقي

كانـت مويـره سـتانلي واقفـة وقـت رواح الغزالـة في شرفـة نـزل في قائـم عـلى الضفـة الشرقيـة مـن البوسـفور تـسرح الطـرف في غـروب الشـمس وقـد أرسـلت أشـعتها الذهبيـة عـلى قبـاب الأسـتانة ومآذنهـا ومـا عتمـت أن قالـت وقـد اسـتهواها هـذا المشـهد إننـي لم أكـن أعتقـد بوجـود مثـل هـذه المناظـر الجميلـة في مدينـة خـلا مدينـة لنـدن التـي فارقتهـا منـذ أسـبوع. قالـت هـذا وجلسـت عـلى كرسـيها حـول مائـدة عليهـا غطـاء أبيـض ناصـع مزركـش بالنقـوش الشرقيـة لترتشـف القهـوة التركيـة وأمامهـا خطيبهـا راكـس الـذي جـاءت إليـه خصيصـاً لتطفـي جـذوة نـار اضرمتهـا عواطـف الحـب التـي تأصلـت منـذ كانـت مسـتخدمة في إحـدى المخـازن الكبـيرة وبعبـارة أخـرى وقـت أن رأت راكـس فـمال إليهـا قلبـه وانجـذب إليـه قلبهـا ثـم صعـدا درجـات الحـب معـاً غـير أن أمـوراً سياسـية اسـتدعت راكـس أن يغـادر بـلاده ويـترك مويـره ليحـضر للأسـتانة. ومـا هـي إلا بضـع أسـابيع حتـى اعتـزم عـلى احضارهـا لأنـه رأى أن لا حيـاة لـه إلا بقربهـا.

والآن ولم يبـق لقرانهـما يومـان فقـد جلسـا حـول هـذه المائـدة يمتعـان الطـرف في المناظـر الخلابـة والمشـاهد الفاتنـة يسـيران دفـة سـفينتهما الخياليـة في محيـط السـعادة الهـادئ؛ راكـس يدخـن غليونـه لا يرفـع بـصره عـن معشـوقته ومويـره وقـد طـار لبهـا تنظـر لأضـواء الأسـتانة المتلألئـة ينطبـق عليهـما قـول الشـاعر:

رأت قمر السـماء فذكرني ليالي وصلها بالرقمتين

كلانـا ناظـراً قمـراً ولكـن رأيت بعينها ورأت بعيني

وبينـما الاثنـان عـلى هـذه الحالـة وقـد خيـم عليهـا سـكون لذيـذ عكـره راكـس بقولـة أترغبـين الذهـاب إلى المرقـص يـا عزيـزتي؟ فأجابتـه ولم تحـول نظرهـا نحـوه إذ ظـل سـارحاً في جـمال الطبيعـة، أي إنسـان يـا راكـس يـترك هـذه المناظـر الطبيعيـة الخلابـة ويذهـب إلى حيـث لا يـرى إلا التصنـع الممقـوت! أنظـر إلى البـدر وقـد قـارب أن يتوسـط السـماء باسـطاً عـلى الأسـتانة حلـة فضيـة، بـل أنظـر إلى تلـك الموجـات المتلألئـة عـلى سـطح هـذا المـاء التـي تغنـى بهـا شـعراء الـشرق قديمـاً وحديثـاً! باللـه أنظـر إلى هـذه التجعـدات المائيـة: ألا تذكـر مـا كنـا قرأنـاه عـما قالتـه جاريـة المعتمـد بـن عبـاد حينـما كانـت جالسـة عـلى شـاطئ الغديـر في مـكان يدعـى بمـرج الفضـة:

نسـج الريح على الماء زرد يا له درعا منيعا لو جمد

أي متـى راكـس تطـوف في عـلى الأحيـاء الوطنيـة لأقـف عـلى شيء مـن أخـلاق السـكان وعـادات القـوم؟ ألا تـرى أن نقـوم بهـذه الجولـة في هـذه الليلـة المقمـرة؟ فأجابهـا إنـك لا تدركـين مـا تقولـين يـا عزيـزتي لأن التجـول في الأحيـاء الوطنيـة ليـلاً يعنـي التعـرض للأخطـار فقالـت وأي أخطـار تعنـي يـا راكـس؟ إن جارنـا قـازان باشـا قـد كلفنـي أن أذهـب معـه إلى حيـث أريـد ولم يذكـر شـيئاً مـما تقـول؟ فأجابهـا وقـد احتـدم غيظـاً إننـي لا أود أن أسـمعك ثانيـة تذكريـن هـذا الشـخص الـروسي الـذي هجـر دينـه واعتنـق الإسـلام لغايـة سياسـية بحتـة و... فقاطعتـه قائلـة: طالمـا أنـت رافـض طلبـي فـإني عازمـة عـلى التجـوال برفقـة هـذا الباشـا!! فامتعـض راكـس مـن هـذه المجابهـة ونهـض قائـلاً أمنعـك يـا مويـره سـتانلي مـن

التحدث إلى هذا الشخص!! فالتفتت إليه وكشرت عن نابها ثم أسرعت نحو الباب قائلة «أتقول هكذا يا راكس؟» وتمكنت من الخروج رغم محاولته منعها ودخلت غرفتها.

ثم خرجت غير واعية إلى الشرفة وهناك أطرقت برهة سكبت بها دمعاً سخيناً لما لاقته من حبيبها من الغلظة والفظاظة اللتين لم تتصورهما في الإبل والإبل مشهورة بذلك كما قال أحدهم:

يبكي علينا ولا نبكي على أحد لنحن أغلظ أكباداً من الإبل

وبينما هي كذلك إذ سمعت وقع أقدام في الشرفة المجاورة فأطلت وإذا بقازان باشا مرتدياً لباس الليل وعلى رأسه الطربوش الأحمر. نعم رأت من حذرها حبيبها من التحدث إليه فكفكفت ذيلها وشدت لاغتنام الفرصة حيازيمها وحاولت الفرار ولكنه فاجأها بالتحية منحنياً أمامها بكل وقار فلم ترَ بداً من ردها وقال لها بلغتها الانجليزية أنها لليلة جميلة يا سيدتي قلما يصادف الإنسان مثلها في الأستانة وأن الناس وخاصة الغرباء منهم ينتظرون مثلها لينتشروا بأحياء المدينة ويدرسوا أخلاق القوم وعاداتهم عن كثب وإني لا أزال أذكر ما وعدتك به لأخذك لتلك الأحياء لتشاهدي ما في قلب هذه المدينة من خفايا. فأطرقت مويره هنيهة ثم أجابته نعم ولكني أعدك أن أذهب في وقت آخر فأجابها إن وقتاً آخر يعني أبداً لأنك ستتزوجين في القريب العاجل ولن تبقى لديك فرصة مناسبة تتمكنين بها من التجوال، ولكنها أومأت له رأسها سلباً أما هو وكأنه قد برع في علمي البسايكولوجيا والبيداغوجيا (علم النفس وعلم التربية) ومهر في أصول

التشويق فقد طرق باباً آخر إذ قال لها أنظري إلى تلك القبة المتلألئة قبة جامع (آيا صوفيا) أنظري هناك إلى الجهة اليسرى منه ترين مكاناً مضاء مصابيح خضراء إلى هناك أود أخذك وهناك تشاهدين الدراويش يطعنون أنفسهم بالمدي دون أن تقطر من أجسامهم قطرة دم ودون أن يشعروا بألم بل هناك ترين فقراء الشراكسة يلعبون الثعابين على نقرات الدفوف فهلمي معي لنذهب هذه الليلة وثقي أنه لن يعلم بنا أحد فاخرجي من النزل بعد أن تضعي عليك رداء أسود وانتظريني في المكان المعروف بـِ (يدي قلة). فأجابته كلا! كلا! أرجوك أن تسمح لي في هذه الليلة رغم رغبتي في مشاهدة ما ذكرت ولكن... فقاطعها قائلاً: ولماذا؟ إنك ستشاهدين آسيا بكاملها إنك سترين ما لم تره فتاة من الجنس الأبيض من قبلك ولكن يظهر لي أنك واجسة فأجابته كلا! ثم صمتت لحظة أردفتها قائلة لقد عزمت على الذهاب فانتظرني بالمكان الذي أسميته لي وسأكون هناك بعد ساعة من الزمن فاستودعها قازان باشا واختفى.

دنا الوقت المضروب فخرجت مويره من غرفتها قاصدة المحل المعين وما هي إلا دقائق حتى رأت صاحبنا قازان بانتظارها فتأبطها من ذراعها وسار معها مخترقاً الأحياء الوطنية والشوارع الضيقة المظلمة وكانت مويره تخبط خبط عشواء في مشيتها، تغرق قدماها الصغيرتان في الماء تارة وتزلق عن الأحجار أخرى ولولا قازان لذهبت ضحية حب الاستطلاع. سار الاثنان مدة حتى اعيا مويره التعب فلم تعد تقوى على السير فسألته وكأنها أدركت شيئاً من الحيلة، إلى أن ينتهي بنا هذا السير يا عزيزي؟ فأجابها ها قد وصلنا بيت أحمد الذي

نقصده وأحب أن أريك إياه إذ فيه سترين رقص الثعابين ولكن عليك قبل كل شيء أن تتحجبي لكيلا يراك أحد عارفيك وعندئذ وصلا باباً حديدياً قرعه قازان باشا فأجابه صوت من الداخل رد عليه قازان بالتركية فتح الباب وقادهما شخص إلى سرداب مظلم أشبه ببيت الأبدية ينتهي بغرفة مدلهمة فدخلاها ومريره المسكينة مسلمة أمرها إلى قازان غير عالمة ما يدر تحت طي الخفاء وهناك ناولها قازان برقعاً أسود طلب إليها أن تستر به وجهها الجميل ففعلت ثم دخل الاثنان قاعة مضاءة بنور أحمر باهت وفي تلك الغرفة أناس جالسون على البسط وأكثرهم يرتشف القهوة بصوت أشبه بشهيق الجمال وإن شئت فقل أشبه بخرير الماء وما بقي فإنجليزي يحرق غليونه وفرنسي يدخن لفافته ومصري يحشش حشيشته وعجمي يكرع معشوقته. وبينما الجميع على هذه الحال وكل يتهامس مع جليسه إذ بطنين حاد وصراخ مزعج ذعر منه الجميع وغدوا كأن على رؤوسهم الطير فتطاولت رقابهم واشرأبت أعناقهم نحو مدخل الغرفة ليستطلعوا ما الخبر؟ وإذا برجل طويل القامة أسود اللون عار حتى نصفه الأسفل وعلى رأسه هالة من الشاش الأبيض يحمل ثعباناً عظيماً ملتوياً على جسمه وثعابين صغيرة أخرى حول ذراعيه وساقيه فازداد الطنين وعلا الضجيج فدخلت فتاة من الجنس الأبيض وقد طلت وجهها بالمساحيق وصبغت شفتيها بالدهان الأحمر ثم بدأت ترقص رقصاً يعود تاريخه لألوف من السنين أي قبل أن عرف البابليون آلهتهم. نفخ في الأبواق وتزايد الضجيج وقرعت الطبول فارتج المكان وزلزلت الأرض زلزالها وقال الإنسان ما لها فخفقت القلوب وارتعدت الأجسام ويا لهول

مـا رأت مويـره المسـكينة إنهـا رأت الفتـاة مطروحـة عـلى الارض والثعبـان هاجـماً عليهـا فأغمضـت مويـره عيناهـا وهمسـت في أذن قـازان قائلـة لقـد اكتفيـت فهلـم بنـا ولكنـه قـدم لهـا رشـفة مـن القهـوة وضـع فيهـا شـيئاً مـن جيبـه لم تـره مويـره فشربتهـا ولكـن ثانيـة مضـت وجـاءت أخـرى فأغمضـت مويـره عينيهـا وغـدت جثـة هامـدة.... فتحـت مويـره عينيهـا فظنـت أنهـا لم تغلقهـما إلا منـذ ثـوان إذ لم تـزل أصـوات المزاهـر تـرن في أذنيهـا وأشـباح الأفاعـي ماثلـة أمامهـا. فالتفتـت يمنـة ويـسرة ورأت نفسـها في غرفـة فريـدة مزدانـة بالزخـارف والريـاش فزعقـت زعقـة كاد يهـوي لهـا المـكان ثـم تمتمـت قائلـة أفي يقظـة أنـا أم في منـام؟؟

كل مـا كان في تلـك الغرفـة فاخـر نفيـس قلـما يـرى المـرء مثلـه في مسـاكن الأغنيـاء، وقصـور الأمـراء، فتسـاءلت ثانيـة هـل أنـا في حلـم؟ فأجابهـا صـوت تمثلـت في نبراتـه الرقـة المصطنعـة قائـلاً أسـعد اللـه أوقـات الأمـيرة! فالتفتـت صائحـة: مـن هـذا؟ مـن أرى؟ قـازان باشـا؟ فقـال لهـا وهـل تتوقعـين غـيره؟ نعـم لقـد أغمضـت جفنيـك في بيـت أحمـد وهـا إنـك تفتحينهـا في أفخـم بيـوت الأسـتانة وأعظمهـا! إن السـجادة التـي تدوسـين عليهـا تسـاوي ثـروة بكاملهـا وتلـك المزهريـة مـن الآثـار التـي نـدر مثلهـا وغـلا ثمنهـا.

فقالـت لـه ومـاذا تعنـي بذلـك؟ بـل لمـاذا أحـضرتي إلى هـذا المـكان؟ فأجابهـا لقـد طلبـت المجازفـة فهـا قـد وصلـت إليهـا! وإننـي لم احتمـل المشـاق وآتي بـك إلى هـذا المـكان إلا لكـوني أحبـك حبـاً جـماً! نعـم أحبـك!! فعلـت حينـذاك وجنتـي مويـره حمـرة الغضـب فضمـت يديهـا وصاحـت

بـه كيـف تجـرؤ أن تقـول مثـل هـذا القـول؟ لا شـك أنـت ماجـن!! نعـم لا أدري وأيـم الحـق كيـف لا تفكـر أن لي خطيبـاً يذيقـك مـر العـذاب فيـما لـو علـم مـا أنـت قائـل! فأجابهـا إننـي جـاد في قـولي لا هـازل ولسـت بمبـالٍ إن علـم خطيبـك بالأمـر أو لم يعلـم! إن ليلـة واحـدة أقضيهـا بقربـك لهـي أسـعد ليـالي حيـاتي. فثـار حينئـذ غضـب مويـره واندفعـت نحـو بـاب الغرفـة ولكنهـا وجدتـه مقفـلاً وحاولـت عبثـاً فتحـه ثـم انطلقـت نحـو بـاب آخـر ظنـت أنهـا منـه ناجيـه ولكـن ويـا للأسـف لم يكـن نصيبهـا منـه أكـثر مـن الأول. فقـال لهـا قـازان وقتئـذ ولفافتـه في فمـه أن هـذا البـاب يقـود لمقـر النسـاء وهـو مـا يسـمى عندنـا بمحـل الحـرم فهـل تريديـن مفتاحـه؟ فاحتدمـت غيظـاً وقالـت خـير لـك أن تتركنـي وشـأني مـن أن تبقينـي سـجينة في قـصرك هـذا إذ لا يلبـث أن ينكشـف الأمـر وتنـال عقابـك وإننـي أؤكـد لـك أن خطيبـي وهـو مـن رجـالات السـفارة لـن يتقاعـس لحظـة واحـدة في هـذا الأمـر الجلـل بـل يرفعـه إلى أوليائـه فتنـدم ولكـن لات سـاعة منـدم! أعـدك لـن أنبـث ببنـت شـفة ولكـن! اطلـق سراحـي. أمـا هـو فبـدلاً مـن أن يـرأف بهـا ويـرق لحالهـا ألقـى بلفافتـه مـن يـده ودنـا منهـا قائـلاً أحبـك وكفـى! وهـذا يـبرر كل مـا أنـا فاعلـه الآن إذ الحـب كـما قيـل يـبرر الإجـرام. الحـب لدينـا نحـن الشرقيـين ليـس كـما هـو عندكـم فهـو لدينـا مـزج إرادتـين مزجـاً كيماويـاً عـلى نـيران العواطـف ولـذا فـإن حبـك لراكـس لم يكـن حبـاً حقيقيـاً. فصاحـت قائلـة لا بـل أحبـه كبغـضي إيـاك فانقـض عليهـا حينـذاك كالوحـش الضـاري وضمهـا إلى صـدره رغـم ممانعتهـا قائـلاً أنـت لا تعرفـين للحـب معنـى مـع أنـك خلقـت مـن أجلـه. إن شـعرك الذهبـي المرسـل عـلى كتفيـك لامـراس كتـان تربـط قلـوب الرجـال وإن

هـذه الشـفة العنابيـة صبغتهـا القـدرة العاليـة لأن تلثـم الأرواح وإن قوامـك الجميـل لزهـرة أحملهـا في ثنايـا قلبـي إلى أن ينتـزع اللـه هـذه الـروح مـن هـذا الجسـد! ايـه يـا مليكـة فـؤادي وابهـر جسـمي هـل تظنـين أننـي جازفـت الآن لأمـر تافـه؟ لا بـل لأن جـذوة حبـك قـد تأصلـت في سـويداء قلبـي. أنـا مـثرٍ يـا مويـره وسـتحيين معـي حيـاة ملكـة سـعيدة فانطقـي بالقبـول فقـط! فلـم يكـن مـن مويـره إلا أن صفعتـه في وجهـه وحاولـت الافـلات مـن براثنـه ولكـن أنّى لحمـل مـن مهـرب مـن بـين يـدي الذئـب الـشره؟ أمـا هـو فظـل مسترسـلاً بفلسـفة الحـب ثـم قـال لهـا: يـا للـه كيـف أسـمح لـك بالذهـاب وأنـت أحـب إلي مـن روحـي؟ أتريديـن قتـلي؟ ولكـن! لا! لا منـاص لـك ولا مهـرب! قـال هـذا ومـال عليهـا بجسـمه الضخـم وقبلهـا وإذا بصـوت أشـبه بهزيـم الرعـد يـدوي بالمـكان فالتفـت الاثنـان فرأيـا شـخصاً عربيـاً عرفتـه مويـره بالحـال إنـه خـادم حبيبهـا راكـس «حسـن الأمـين».. فصـاح قـازان مسـتغيث، وحـاول أن ينقـض عـلى خصمـه حسـن وقابلـه هـذا بالمثـل فتصادمـا وتعـاركا ومـا هـي إلا لحظـة حتـى عـثرت قـدم العـربي الأمـين فوقـع عـلى الأرض وتنـاول قـازان عندئـذ مسدسـه وصوبـه نحـوه وأطلـق رصاصـة اخترقـت دمـاغ الأمـين وأردتـه قتيـلاً مضرجـاً بدمائـه وعـلى اثـر طلـق الرصـاص فتـح البـاب ودخـل منـه شـخصان مسـلحان حمـلا هـذا المسـكين الـذي ذهـب ضحيـة الإخـلاص والأمانـة فبكتـه مويـره ثـم التفتـت إلى قـازان قائلـة ألا تخجـل أن تقـدم عـلى قتـل نفـس بريئـة؟ أليـس مـن العـار أن ترتكـب عمـلاً يـأبى ارتكابـه صعلـوك مـن صعاليـك العـرب مثـل هـذا؟ ولكـن أنى لأمثالـك مـن مثـل هـذه المـروءة التـي تتمثـل في نفـس هـذا الأمـين! أمـا قـازان فبـدلاً مـن أن يكفكـف دمعهـا ويسـتغفر

ربـه قـال لهـا ألا تعلمـين أن ليـس لحياتـه قيمـة لـدي؟ بـل ألا تعلمـين أن حـادث قتلـه قـد قلـب برنامجنـا رأسـاً عـلى عقـب؟ إذ بعـد أن كنـت عازمـاً عـلى اخـلاء سـبيلك في الصبـاح عـدت فقـررت ابقـاءك هنـا إلى يـوم الدكـة والحسـاب ولهـذا هلمـي معـي إلى الغرفـة المجـاورة أي إلى حيـث تقضـين حياتـك. فـأرادت الممانعـة ولكنهـا اسـتصوبت بعـد أن شـاهدت مـا حـدث أن تذعـن لأمـره وتستسـلم لأهوائـه فتبعتـه يائسـة باكيـة كالشـاة المقـودة للذبـح. وهنـاك قـرع قـازان جرسـاً نحاسـياً حـضرت عـلى قرعـه سريتـان ألقـى عليهـما بعـض أوامـره ثـم التفـت إلى مويـره البائسـة وقـال لهـا مهـدداً: بعـد سـاعة أعـود! ثـم خـرج.

لنرجـع الآن إلى راكـس الحزيـن لـنرى مـا حـل بـه ومـا هـي الخطـط التـي يرسـمها ليقـف عـلى اثـر حبيبتـه فـنراه جالسـاً وقـد شردت أفـكاره وشـحب لونـه وغـارت عينـاه وأمامـه مديـر البوليـس عبـد اللـه بـك في غرفـة فريـدة مـن النـزل وكلاهـما يشـحذ قريحتـه في حـل عقـدة هـذا الحـادث الغريـب ورفـع السـتار الكثيـف عـن هـذا الـسر الغامـض فتلمـظ عبـد اللـه بـك وتمخـض ثـم أخـذ يجـري قلمـه عـلى صفحـة بيضـاء أمامـه أشـبه بصفحـات دماغـه وقـال: لقـد شـاهدت مويـره لآخـر مـرة يـا راكـس بعـد غـروب الشـمس حينـما دخلـت غرفتهـا وقـد فهمنـا بعـد البحـث والتحقيـق أنهـا لم تدخـل سريرهـا بـل انسـلت مـن النـزل تحـت جنـاح الليـل لغايـة في نفسـها ولا غرابـة فهـي امـرأة لا يسـبر لهـا غـور وكـما تعلـم لا يفهـم المـرأة إلا المـرأة، ولا شـك أن هنـاك سراً في خروجهـا وأن وراء الأكمـة مـا وراءهـا. فقـال راكـس: رحـماك ربي رحـماك! أي غايـة تعنـي يـا حـضرة البيـك؟ هـل تظـن أنهـا تحـب شـخصاً آخـر؟؟ ثـق إن ذلـك مسـتحيل لأني أعلـم بقلـب

مويـره وخلقهـا مـن أي شـخص آخـر ولكـن في الأمـر حيلـة ألقـي تبعتهـا عـلى شـخص كان يرقـب مويـره مـن وقـت لآخـر ولا شـك أنـه خدعهـا وقـد حذرتهـا منـه ومـن أجلـه تخاصمنـا في مسـاء الليلـة التـي اختفـت بهـا فقـال عبـد اللـه (وقـد فتـل شـاربه) مـا اسـم ذلـك الرجـل؟ فأجابـه اسـمه قـازان باشـا! فارتعـد عبـد اللـه لهـذا الاسـم وعلـت وجهـه صفـرة الخـوف وجمـدت عينـاه وتلعثـم لسـانه ودالـت دولـة كبريائـه وبعـد جهـد تمكـن أن يقـول أنـت مخطـئ، وظنـك مغلـوط إذ أن قـازان باشـا رجـل عظيـم وعظيـم جـداً وأنـه مـن المسـتبعد بـل مـن المسـتحيل أن يرتكـب مثـل هـذا العمـل وخـير لـك أن تبحـث عـن الحقيقـة علـك تعـثر عليهـا مـن أن تجـازف وتتهـم مثـل هـذا الرجـل الكبـير. وبينـما هـما يتجـادلان إذ بـاب الغرفـة يفتـح ويدخـل منـه قـازان باشـا ورنـات الحـزن باديـة في صوتـه قائـلاً إني أتجـاسر وأدخـل عليكـم الآن دون اسـتئذان لأن حادثـاً جلـلاً وهـو حـادث اختفـاء مويـره قـد أثـر في تأثـيراً عظيـماً لأننـي أفاخـر بصداقتهـا والآن؟ هـل بالإمـكان أن أقـدم إليكـما المعونـة الممكنـة؟ فأجفـل هـذا القـول راكـس واضطـره أن ينهـض عـن مقعـده صائحـاً بـل قـل الحقيقـة يـا قـازان ولا تخـفِ شـيئاً! لقـد وعـدت مويـره أن تطـوف بهـا عـلى الأحيـاء الوطنيـة فقـل لنـا مـاذا جـرى لهـا؟ فاستشـاط عبـد اللـه بـك غضبـاً وقـال إني أحتـج عـلى هـذه التهمـة يـا راكـس لعـدم وجـود بينـات كافيـة تثبـت إدانتـه. فتكلـم قـازان عندئـذ قائـلاً: نعـم وعدتهـا ولكنـي لم أفعـل ولـدي مـن شـهود الحـصر عـدد كبـير وكلهـا إفـادات تؤيـد ذهـابي لبيـت أحمـد مـع امـرأة مـن معـارفي ومـما سـمعته يـا راكـس أيضـاً أن خادمـك حسـناً مفقـود أيضـاً! فذعـر راكـس وقـال: وهـل تظـن أن مـن خاطـر بحياتـه ثـلاث مـرات

لينجينـي مـن الأخطـار يقـدم عـلى خيانـة سـيده؟ وبينـما هـما في أخـذ ورد إذ بالهاتـف يقـرع فتناولـه عبـد اللـه ولـدى اصغائـه صـاح أن ثيابـاً تخـص فتـاة انجليزيـة وجـدت عائمـة عـلى سـطح ميـاه البوسـفور فهلمـوا بنـا لنبحـث عـن ذلـك!!

ومـا هـي إلا بضـع دقائـق حتـى كان الثلاثـة في دائـرة الشرطـة يقلبـون الثيـاب فتناولهـا راكـس وضمهـا إلى صـدره وبـكى بـكاء الأطفـال. كيـف لا يبـكي؟ وهـي ثيـاب حبيبتـه التـي شـاهدها عليهـا لآخـر مـرة فتذكرهـا وتذكـر سـعادته الموهومـة التـي فارقتـه منـذ وطـيء هـذه المدينـة وبعدئـذ وضعهـا بلطـف كانـه يضـع جسـم مـن أحـب ثـم التفـت إلى مديـر الشرطـة وقـال بصـوت خافـت خنقتـه العـبرات وقلـب يائـس أن هـذا لا يـدل عـلى أن مويـره قـد فارقـت هـذا العـالم الفـاني وهـذا هـو اعتقـادي الجـازم ولا بـد لي مـن البحـث عنهـا في مشـارق هـذه المدينـة ومغاربهـا وإن هـذه النفـس الثائـرة لـن تتقاعـس لحظـة في سـبيل ذلـك طالمـا أحمـل بـين جنبـي قلبـاً نقشـت عليـه بقلـم القـدرة العاليـة شـخص مويـره التـي مـن أجلهـا خلقـت ومـن أجلهـا أمـوت. قـال هـذا وأراد الخـروج غـير أن عبـد اللـه اسـتوقفه قائـلاً إلى هنـا تنتهـي واجبـات الشرطـة إذ أن التقـاط هـذه الثيـاب دليـل قاطـع وبرهـان سـاطع عـلى مفارقـة مويـره الحيـاة!!

جـن الليـل وكانـت الثانيـة عـلى أسر مويـره التـي نراهـا الآن جالسـة بسـجنها الصغـير المحـاذي لغرفـة نسـاء قـازان باشـا الكثـير عددهـن فتطلعـت مـن نافذتهـا ورأتهـن عاريـات يسـبحن في حـوض المـاء وكلهـن جميـلات سـاحرات كزهـور الربيـع باعهـن أولياؤهـن بالدراهـم كأنهـن سـلع تبـاع

وتـشرى وأصبحـن يأتمـرن بأمـر قـازان وينهجـن المناهـج التـي يرسـمها لهـن يلعـب معهـن كيـف شـاء فـإن أحـب هجرهـن وإن أراد اسـتعبدهن وإن قصـد تخلـص منهـن بلفظـة واحـده يكررهـا ثـلاث مـرات! هـن حيوانـات مسـجونة في قفـص ذهبـي لا يسـمح لأحـد بالدخـول عليهـن ولا يخرجـن إلا بـإذن حاكمهـن المطلـق وسـيدهن المطـاع. وكـم سـاء مويـره عـدم معرفتهـا لغتهـن لتعلـم مـاذا يفكـرن ومـا درجـة تأثـير هـذه الحيـاة في نفوسـهن. تأملـت مويـره في وجوههـن الشـاحبة وبشرتهـن الكالحـة ثـم صاحـت يـا الهـي هـل قـدر عـلي في اللـوح المكتـوب أن أدخـل في زمرتهـن وأكـون مـن عدادهـن وأعيـش عيشـتهن؟ لا! لا! المـوت أفضـل مـن حيـاة مثـل هـذه وإني لأعجـب كيـف تقيـم هـؤلاء النسـوة عـلى الضيـم والـذل ويعشـن عيشـة الشـقاء والتعاسـة! ولله در القائـل:

ولا يقيـم على ضم يراد به

إلا الأذلان عـير الحي والوتد

تمتمـت هـذا ونظـرت للكواكـب المتلألئـة فتذكـرت آخـر لحظـة قضتهـا وحبيبهـا ثـم نظـرت إلى نفسـها فـرأت أنهـا أصبحـت شرقيـة بلباسـها إذ أجـبرت عـلى قلـع الثيـاب الغربيـة فأجهشـت بالبـكاء والعويـل نادبـة حظهـا شـاكية للـه أمرهـا وبينـما هـي كذلـك إذ بقـازان يفتـح البـاب ويدخـل دون اسـتئذان ثـم يغلقـه مـن خلفـه ويرمـي بطربوشـه جانبـاً ويدنـو منهـا قائـلاً إلا ترحبـين بمقدمـي يـا مويـره؟ ألا تبسـمين بمـن هـام بحبـك وغرامـك إننـي لم أكـن لأعهـد بقلـوب النسـاء قاسـية لهـذا الحـد! فأجابتـه بـل قـل متـى تـود فـك عقـالي؟ ولمـا رأى قـازان أنـه كلـما زاد تزلفـه زادت منـه نفـوراً

وكلـما زاد لطفـاً زادت قسـوة وكلـما اقـترب منهـا ابتعـدت عنـه احتضنهـا دون أن يرحـم جسـمها النحيـف وقدهـا الرقيـق الـذي كاد يتحطـم بـين ذراعيـه حاولـت الافـلات ولكنـه زاد عليهـا ضغطـاً، ثـم قـال خـير لـك أن تذعنـي لطلبـي وتصبحـي زوجـة سـعيدة تتسـاوى بالحقـوق والواجبـات فتخرجـين مـن البيـت أنى شـئت وتذهبـين حيـث أردت دون معـارض أو ممانـع ولكـن! ألفظـي كلمـة القبـول فقـط وسـلي ثيابـك عـن ثيـاب راكـس وأطرديـه مـن مخيلتـك وامحـي أثـره مـن قلبـك إذ أنـه نقـض عهـده لـك ومـال إلى ممثلـة افتـتن بهـا في هـذه المـدة الوجيـزة وخاصـة بعـد أن علـم بموتـك وتأكـد ذلـك مـن ثيـاب وجدهـا عائمـة عـلى وجـه مـاء البوسـفور أشـبه بثيابـك إن لم تكـن بعينهـا ولا شـك فإنـه لا يلبـث أن يقـترن بهـا وإني قـادر أن أريـك ذلـك رأي العـين عـلى أن تعـدي أن تكـوني زوجتـي وأنـا أريـك راكـس يعانـق تلـك الفتـاة التـي هـام بهـا منـذ سـاعة فراقـك... قـال هـذا ومويـره كلهـا آذان صاغيـة لسـماع هـذا النبـأ الغريـب الـذي لم تكـن لتتوقعـه لاعتقادهـا الراسـخ بصـدق حبيبهـا واخلاصـه في حبهـا ولكنهـا وعدتـه بمـا أراد بعـد أن تعهـد أن يتركهـا وشـأنها إذا كان كاذبـاً فيـما يقـول وخـرج يدبـر المكيـدة وينصـب الـشراك ليصطـاد عصفوريـن بحجـر واحـد.

تعـود إلى راكـس نجـده الآن واقفـاً أمـام مـرآة يغـيّر هيـأة وجهـه ويصبـغ شـعره وحاجبيـه إذ قـرر بعـد أن خابـت مسـاعيه أن يتغلغـل بـين الطبقـة العامـة مـن الشـعب ليسـتمع أحاديثهـم ويسـترق أخبارهـم علـه يقـف لحبيبتـه عـلى أثـر وقـد ألقـى قبعتـه جانبـاً واسـتبدلها بطربـوش أحمـر وحمـل بيـده سـبحة مـن الكهربـاء ووضـع في جيبـه مسدسـاً صغـيراً ثـم خـرج مسرعـاً لا يلـوي عـلى شيء، وسـار حتـى وصـل مقهـى رجـل أرمنـي

دخلـه وأخـذ مكانـاً قـرب جماعـة مـن ذوي الأحزمـة الصوفيـة الحمـراء وأخـذ يسـترق السـمع متلهيـاً بـشرب الشـاي وبينـما هـو عـلى هـذه الحالـة إذ رأى فتـاة تسـير نحـوه ولما دنـت منـه انحنـت باحـترام قائلـة هل لسـعادة البيـك أن يسـمح لي بالجلـوس بجانبـه ومـا كادت تسـتوي بمقعدهـا حتـى التفتـت إليـه قائلـة لا شـك أنـك تبحـث عـن شـخص! فقال لهـا ومـاذا تعنين؟ فقالـت مـد يـدك لأخـبرك دخيلـة مرامـك فطاوعهـا وأعطاهـا يـده وبعـد أن تأملـت بهـا طويـلاً قالـت وصوتهـا يـكاد لا يسـمع إنـك تبحـث عـن فتـاة همـت بحبهـا وظاهـرك لا يـدل عـلى حقيقتـك أنـت متخـف تلبـس وجهـاً مسـتعاراً وحبيبتـك قريبـة منـك وليـس بينكـما إلا هـوة عميقـة لا يقـوى عـلى اجتيازهـا أحـد إلا بمسـاعدتي لـه. فصـاح قائـلاً كيـف؟ ومـن أنـت؟ ومـا اسـمك؟ فقالـت إني ادعـى (ياسـمينة) أمـا أنـت فتدعـى راكـس وخطيبتـك مويـره التـي أرسـلتني إليـك. فوقـف قائـلاً إني مديـن اليـك بحيـاتي! هـل هـي عـلى قيـد الحيـاة؟ كـم تريديـن عـلى هـذه البـشرى؟ باللـه هلمـي لنذهـب إليهـا! قـال هـذا وأجهـش بالبـكاء. فأجابتـه لا أتطلـب منـك مـالاً أو جاهـاً مقابـل هـذا الصنيـع بـل جـلّ مـا هنالـك عـدني أنـك منفـذ مـا أكلفـك عملـه إذا مـا أوصلتـك إليهـا فوعدهـا ونهـض الاثنـان فشـت وتبعهـا ثـم سـارا في شـوارع مظلمـة ومـا هـي إلا دقائـق معـدودة حتـى كانـا أمـام بيـت ضخـم لـه عـدة أبـواب كبـيرة وبـاب آخـر صغـير فتحتـه ياسـمينة ودخـلا حديقـة غنـاء وهنـاك أومـأت لـه أن لا يحـدث حركـة كيـلا يراهـما الحاجـب فسـار يتعقبهـا مسـترق الخطـى فأوصلتـه إلى غرفـة جميلـة لم يـدر أنهـا الغرفـة المجـاورة لغرفـة حبيبتـه وهنـاك أضـاءت المصبـاح وقلعـت ثيابهـا الخارجيـة وظهـرت أمامـه مكشـوفة الذراعـين عاريـة الصـدر وقالـت

لـه بغنـج ودلال أتعلـم أنـك في مقـر (الحريـم) في بيـت قـازان باشـا الـذي إذا مـا علـم بوجـودك قتلـك شر قتلـة وذهبـت أنـا ضحيـة اخـلاصي لـك إلا أن المـوت هـين ونفـسي ترخـص في سـبيل الغايـة المنشـودة. رأيتـك منـذ أيـام وعرفـت تحبـك فتـاة انجليزيـة وعندئـذ تلاشـت آمـالي... وأمـا الآن فـلا أطلـب منـك إلا ذكـرى أحفظهـا بـين ثنيـات أضلعـي في آخـر لحظـة أقـف بهـا عـلى جانـب رمـسي... ضمنـي إلى صـدرك وأرسـم عـلى وجنتـي قبلـة حـارة مـن ثغـرك الجميـل! ثـم أرسـلت عـبرة سـالت عـلى وجههـا الأسـيل وأتبعتهـا بأخـرى قائلـة لا أتطلـب أن تحبنـي لأنـك أحببـت غـيري ومـا حبـك إلا لحبيبـك الأول! ولكـن مـا العمـل؟ باللـه ارحـم فـؤادي الـذي يـكاد يتمـزق جـوى ولوعـة بـل ارحـم قلبـاً يـذوب أسى! لا تكـن غليـظ القلـب!!! فحـن إليهـا راكـس ورق لهـا قلبـه ولكـن لم يكـد يميـل عليهـا حتـى اندفعـت إليـه وأشـبعته تقبيـلاً صائحـة عزيـزي روحـي! حبيبـي! وبينـما هـما عـلى هـذه الحالـة كان قـازان بالغرفـة المجـاورة يـري مويـره حبيبهـا وهـو يعانـق فتـاة غيرهـا وعندئـذ فتـح البـاب ودخـل منـه اثنـان قبضـا عـلى راكـس وشـدا وثاقـه.

عـاد قـازان عندئـذ إلى مويـره مبتسـماً ابتسـامة الظافـر أمـا هـي فقـد جلسـت وقـد اسـتولى عليهـا ذهـول وترقـرق دمعهـا بمآقيهـا لمـا جرفتـه عليهـا صروف الدهـر مـن أهـوال وهـي لم تصـدق مـا رأت لمـا تعتقـده بحبيبهـا ولكنهـا مـا كادت ترسـل لنفسـها العنـان حتـى اقـترب منهـا قـازان قائـلاً أرجـو أن أكـون قمـت بمـا وعـدت فهـل لـك أن تفـي أنـت أيضـاً بمـا وعـدت؟ فأرعبهـا هـذا القـول وانتصبـت صائحـة في وجهـه بـل أنـت محتـال خسـيس! كـف عنـي باللـه! ثـم أسـندت رأسـها إلى الجـدار وأجهشـت

بالبـكاء ولسـان حالهـا يقـول:

عناء ويأس واشـتياق وغربة

الأشـد ما ألقاه في الدهر من غبن

فيـا قلب صبراً إن جزعت فربما

جرت سـنحاً طير الحوادث باليمن

فقـد تورق الأغصان بعد ذبولها

ويبـدو ضياء البدر في ظلمة الوهن

ولكـن قـازان عكـر عليهـا خيالهـا وحـط عليهـا كالطائـر المسـتنثر مهـدداً صاخبـاً فأجابتـه بالمثـل قائلـة أقـاوم حتـى النفـس الأخـير وأقاتـل حتـى المـوت بـكل مـا أوتيـت مـن قـوة وعزيمـة فافعـل بي مـا شـئت.. حملهـا حينـذاك كمـن يحمـل طفـلا رضيعـة وألقـى بهـا عـلى السريـر وحـاول شـد وثاقهـا ولكـن يدهـا وصلـت إلى آنيـة عـلى المنصـة القريبـة مـن السريـر فحطمتهـا برأسـه وخـر مضرجـاً بدمـه.

فهرعـت نحـو البـاب ووجدتـه مقفـلاً ثـم لـوت عـلى قـازان ومـدت يدهـا إلى جيبـه وانتشـلت منـه مفتاحـاً فتحـت بـه بـاب الغرفـة وهمـت بالخـروج ولكـن رجـلاً طويـل القامـة أدكـن اللـون شـاهراً حسـامه اسـتوقفها وقادهـا إلى غرفـة أخـرى سـجنها بهـا وعـاد إلى سـيده يضمـد جراحـه وبعـد أن عالجه سـاعة مـن الزمـن اسـتفاق مـن غيبوبتـه سـائلاً عـن مويـره فأجابـه الحـارس أنهـا سـجينة يـا سـيدي فـسر لذلـك رغـم آلامـه وأشـعل لفافـة مـن التبـغ تـم عـرج نحـو مويـره السـجينة وفتـح بـاب سـجنها قائـلاً: جئـت لأقـودك

إلى راكس الذي سينفذ به حكم الاعدام كما نص الكتاب لارتكابه جرم دخول مقر الحرم وثقي أن لا شفيع له ولا مخلص إلا أنت. تعالي معي حيث هو مكبل بالحديد ينتظر ساعته الأخيرة وعندئذ إما أن يثوب إليك رشدك وترجعي للغرفة التي خصصتها لك وتصبحي زوجتي كما تتطلب الشريعة الاسلامية الغراء والشعائر الدينية فتخلصين حينئذ حياة راكس وإما أن تعودي إلى غرفة أخرى تقضين بها حياتك سجينة بعيدة عن راكس لا تجتمعان إلا في الجحيم؟ فأجابته ولكن من يضمن لي على برك بوعدك؟ إذ من المستحيل أن تسمح لراكس بالخروج بعد أن وقف على سر اختفائي: فأجابها أنا أعدك بذلك وكل ما ذكرت لا تأثير له لأني قازان باشا وكفى! واعلمي أيضاً أن ليس في الأستانة شخص يجرؤ على دخول بيتي! والآن وقبل فوات الفرصة ونفاذ السهم اعلميني على ما عزمت. فأجابته خذني لراكس أولا فأخذها ونزلت مئات من درجات سلم حجري يقود لعقد قديم مظلم وفيه راكس مثقل بالسلاسل وعضلاته ترقص من شدة البرد القارص والرطوبة القتالة وما كاد يقع بصرها على حبيبها وهو على هذه الحالة حتى زعقت زعقة شق لها عنان السماء وعندها صاح قازان بخدمه فامتثل أمامه شخصان أسودان دخلا الغرفة حتى توسطاها وتعاونا على رفع باب حديدي عن ثقب في أرض الغرفة ظهرت من تحتها مياه تيار البوسفور يعج عجيجها فقبض عندئذ قازان على ذراع مويره ودنا بها إلى حافة تلك الفتحة قائلاً إما أن يكون هذا قبر راكس ويذهب أكلاً للأسماك دون أن يعلم به أحد وإما أن تقبليني زوجاً لك! فلا تتردد مويره لحظة واحدة في الأمر حتى اختارت الشق الثاني وفضلت

حيـاة مـن أحبـت عـلى حياتهـا. فالتفـت إليهـا قـازان عندئـذ مبتهجـاً وقـال هلمـي بنـا إلى الإمـام الـذي ينتظرنـا في الطابـق الثـاني ليجـري عقـد زواجنـا ولكـن اذهبـي أولاً إلى الغرفـة المعـدة لنـا وهنـاك اسـتبدلي ثيابـك هـذه بثيـاب العـرس وأمـا راكـس فسـيطلق سراحـه في صبـاح الغـد فأطاعـت أمـره ولكنهـا ألقـت النظـرة الأخـيرة عـلى راكـس ولسـان حالهـا يقـول:

عليك سـلام الله إني مودع

وعينـاي من الم التفرق تدمع

فإن نحن عشـنا يجمع الله بيننا

وإن نحـن متنا فالقيامة تجمع

ثـم صعـدت درجـات السـلم ودخلـت تـواً للغرفـة الخاصـة وهنـاك بدلـت ثيابهـا بلبـاس العـرس بعـد أن غسـلتها إحـدى الـسراري بمختلـف الأطايـب وأمطرتهـا بأصنـاف العطـور ثـم جاءهـا قـازان يتهـادى مشـيته خاصرهـا وذهـب بهـا إلى حيـث كان الشـيخ ينتظرهـما وهنـاك بعـد أن تمتـم الإمـام أسـماء اللـه الحسـنى قـال: {رَبُّ الْمَشْرِقَـيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَـيْنِ * فَبِـأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُـمَا تُكَذِّبَـانِ * مَـرَجَ الْبَحْرَيْـنِ يَلْتَقِيَـانِ * بَيْنَهُـمَا بَـرْزَخٌ لَا يَبْغِيَـانِ * فَبِـأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُـمَا تُكَذِّبَـانِ... وَمِـنْ دُونِهِـمَا جَنَّتَـانِ... فِيهِـمَا عَيْنَـانِ نَضَّاخَتَـانِ... فِيهِـمَا فَاكِهَـةٌ وَنَخْـلٌ وَرُمَّـانٌ... حُـورٌ مَقْصُـورَاتٌ فِي الْخِيَـامِ... لَـمْ يَطْمِثْهُـنَّ إِنْـسٌ قَبْلَهُـمْ وَلَا جَـانٌّ... فَبِـأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُـمَا تُكَذِّبَـانِ}. (هكـذا) وبعدئـذ قـدم لهـا آيـات التهـاني واختفـى وظـل قـازان وزوجتـه!!!

وأما راكس المسكين فظل في سجنه وقد خابت مساعيه وخارت قواه وتلاشت آماله وقطع كل بصيص أمل في النجاة وبينما هو ينتظر الدقيقة التي سيفارق فيها هذا العالم فتح الباب ودخلت (الياسمينة) شاهرة مدية تبرق في ظلام الليل الحالك ودنت منه قائلة جئت لحل وثاقك وفك قيودك فبادرها بالحال السؤال عن حبيبته فأجابته خير لك أن تنجو ومن ثم تفكر في خلاصها وأما الآن فأعف عني واغفر لي ذنوبي لأني ما اقترفت من الأعمال إلا قسراً وكرهاً وها إني أتيت لأكفر عن سيئاتي ولكن هل تحسن السباحة؟ قال نعم فقالت إذا تعال وأعني على رفع هذا الباب الحديدي! فرفعاه وعندئذ قالت له من هذه الثقبة يمكنك النجاة فاذهب بأمان الله ورعايته وسيجمعنا رب اللحد إذ لا مناص لي بعدك ولا خلاص من القتل فتوكل على الله واقفز بهذا الماء! فتحفز راكس وشمر عن ساقيه وساعديه ثم أدلى برجليه وغاص وشعر أن شيئاً آخر سقط معه في الماء لم يتحققه من شدة الظلام.

دخلت مويره وقازان للغرفة الخاصة المعدة لها فطلب قازان شيئاً من الخمر فأعطي بالحال وما كاد يرتشف الرشفة الأولى حتى أغمض عينيه واستلقى على الوسادة كأن في الخمر مادة منومة فظنت مويره أن في الأمر حيلة وأن هناك سراً غامضاً يدبر بالخفاء قصد قتلها ولا يبعد أن يكون من نساء قازان فاعتزمت أن ترتشف هي أيضاً قدحاً حتى الثمالة إذ فضلت الموت على حياة ملؤها الشقاء والتعاسة وما كاد يلثم القدح ثغرها حتى استفاق قازان وقبض على يدها صائحاً لا تفعلي إذ يظهر أن في هذا الخمر عقاراً ساماً قد وضعته يد أثيمة

سيظهرها التحقيق في الصباح ومن حسن حظي إني لم أتناول منه شيئاً فقلت وهل تظن أني مقترفة هذا الجرم؟ فأجابها كلا إذ غدوت لا أعتقد بذلك حتى لو أعطيت مسدساً محشواً بالرصاص وكلفت أن تقتليني ما فعلت ذلك إذ أصبحت زوجك فقالت لا! لا! تفكر بذلك بل اعتقد إني أضمر لك شراً وإني أرقب الظروف لأتخلص من شخصك فقال ولكن ألا تعلمي أن المرأة الناشز تقرع بالسوط حسب أوامر الشريعة الاسلامية وقد أصبحت من عداد زوجاتي. فأجابته اني انجليزية ونفسي تأبى الذل والاقامة على ضم فتقدم منها بعدئذ وحاول مداعبتها وإذ بالباب الخارجي يقرع قرعاً شديداً ففتح باب الغرفة ودخل الحاجب صائحاً أن جنوداً بإمرة عبد الله بك قد كسروا الباب عنوة وها هم يصعدون السلم وأن (الياسمينة) اختفت أيضاً. فتطلع قازان من النافذة وإذا بالجنود أمام غرفته فتناول مسدس صوبه نحو صدره وأطلق رصاصتين اخترقتا أحشاءه فخر جثة هامدة لا حراك فيها وعندئذ دخل الجميع للغرفة وبينهم راكس فتسلم حبيبته وخرج.

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان

رقمنة
مشروع النشر الرقمي